

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب التاسع والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب التاسع والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩٢

سورة النبـأ

مكية ، وعدد آياتهـا اربعون آية
وتسمى ايضا « عم » وعم يتساءلون

مناسبتها لمـا قبلها :

أنها ركزت على إثبات القدرة على البعث ، وكان محور السُّورِ السابقة عليها هو تكذيب الكفرة به وذلك بالرد عليهم وإثبات جهالتهم ، كما أنها تشترك مع ما قبلها فى الاشتمال على وصف الجنة والنار ووصف يوم الفصل الذى ذكر هنا مفصلا وفيما قبلها مجملا .

مقاصد السورة :

ابتدأت بالحديث عن يوم القيامة ، والبعث والجزاء ، ذلك الموضوع الذى شغل الكثيرين من كفار مكة حتى صاروا ما بين مصدق به وشاكٍّ ومكذب (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ...) الآيات .

أقامت الأدلة على إمكان البعث بما عرضت من مظاهر القدرة التى تشير إلى أن من قدر على هذا الإبداع ، لا يعجزه إعادة خلق الإنسان (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ...) الآيات .

أبرزت تأكيد البعث بذكر بعض علاماته التى تنبىء بوقوعه لامحالة (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ...) الآيات .

تحدثت عن جهنم التى أعدها الله للطاغين ، وما فيها من ألوان العذاب وصنوف العقاب : (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ...) الآيات .

تحدثت عن المتقين ببيان ما يتمتعون به من أنواع النعيم الدائم (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ...) الآيات .

أشارت إلى قيام الروح والملائكة بين يدى رب العالمين ، وبينت حالهم فى هذا الموقف العظيم : (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ...) الآية .

وختمت السورة بالإنذار والتخويف من هذا اليوم الرهيب الذى حمل رُعْبُهُ كلَّ كافر على أن يقول : ياليتنى كنت تراباً (إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ..) الآية .

بسم الله الرحمن الرحيم

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦)

المفردات :

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) الأصل : عن ما يتساءلون ، أدغمت النون فى الميم ، وحذفت ألف ما فى الاستفهام تخفيفاً لكثرة الاستعمال .

(عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ) : عن الخبر الذى له شأن وخطر .

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا) : ممهدة للخلائق ذلولاً لهم .

(وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) أى : كالأوتاد أرسينا بها الأرض حتى قرّت وثبتت كما يرسى البيت من الشعر ونحوه بالأوتاد .

(نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) : قاطعاً عن الحركة ، من السبت : وهو القطع ؛ لأنه يقطع الإحساس والحركة .

(اللَّيْلَ لِبَاساً) : يستركم بظلامه كما يستركم اللباس .

(النَّهَارَ مَعَاشاً) : تتقلبون فيه فهو وقت تحصيل عيشكم .

(سَبْعاً شِدَادًا) أى : سبع سمٰوات قوية الخلق بديعة الصنع .

(سِرَاجاً وَهَّاجاً) : مشرقاً متلألئاً من وهجت النار إذا اتقدت ، والمراد به : الشمس .

(وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ) : وهى السحائب حانت وقاربت أن تعصرها الرياح فتمطر .

(مَآءً ثَجَّاجًا) : شديد الانصباب ، يقال : ثَجَّ الماء : إذا سال بكثرة ، وثجه : أساله ، ورد لازماً ومتعديا .

(حَبًّا وَنَبَاتًا) الحب : ما يقتات به نحو الحنطة والنبات : ما يؤكل خضرًا رطباً من التبن والحشيش .

(وَجَنَّاتٍ) المراد بها : كل بستان يستر بأشجاره الأرض ، ، من الجَنّ وهو الستر .

(أَلْفَافاً) : ملتفة تداخل وتشابك بعضها ببعض ، وهو اسم جمع لا واحد له ، أوجمع لفيف بمعنى ملفوف ، كشريف وأشراف ، أو ليف كجِذْع وأجذاع .

التفسير

١ - ٣ - (عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) :

أى : عن أى شىء يتساءلو ن . والضمير لكفار مكة وإن لم يسبق ذكرهم وفى ترك ذكرهم إهانة واحتقار لهم ، وكانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث ويخوضون فيه إنكارًا له واستهزاء به لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومسماه بل عن وقوعه الذى هو حال من أحواله ، ووصف من أوصافه .

وقيل : كانوا يتساءلون ، أى : يسألون النبى ﷺ والمؤمنين بطريق السخرية والتكذيب ويجىء (تفاعل) بمعنى فَعل كتوانى زيد ، بمعنى ونَى ، وتَدانَى الأمرُ ، بمعنى دنَا ، وتعالى الله عما يشركون ، بمعنى علا ، ومنه تساءل بمعنى سأل .

وليس المراد بالاستفهام فى بدء السورة الاستعلام وإنما أريد به تفخيم المسئول عنه بإبهام أمره وتوجيه أذهان السامعين نحوه ، وتشويقهم إلى معرفة شأنه ، فإن إيراده من علام الغيوب الذى لاتخفى عليه خافية ، تنبيه على أنه خارج عن دائرة علوم الخلق خليق بأن يعتنى بمعرفته ، ويسأل عنه ، كأنه قيل : عن أى شىء يتساءلون ؟ ثم قيل بياناً للمسئول عنه بطريق الجواب يتساءلون (عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ) أى : عن الخبر الذى له شأنه وخطره وهو البعث ، ثم وصف بالعظيم لتأكيد ذلك وقد ورد الجواب على منهاج قوله تعالى : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»[١] حيث كان السؤال والجواب من الله تعالى .

(الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) : وصف ثان للنبأ بعد وصفه بالعظيم تأكيدا لخطره ؛ فهو تأكيد إثر تأكيد للمبالغة ، أو إشعارًا بالباعث على التساؤل عنه ، وإيثار أن تكون صلة الموصول جملة اسمية للدلالة على الثبات ، أى : هم راسخون فى الاختلاف فيه فمنهم منكر جازم باستحالته يقول :

« إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[٢] ومنهم شاكٌّ يقول :

« مَانَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ »[٣] ومن الاختلاف أن منهم من ينكر الْمَعَادَيْنِ : البعث والقيامة كهؤلاء ، ومنهم من ينكر البعث الجسمانى فقط ، وحمل بعضهم الاختلاف على الاختلاف فى كيفية الإنكار ، فمنهم من ينكر البعث لإنكار الصانع المختار ، ومنهم من ينكره بناء على استحالة إعادة المعدوم بعينه ، وقيل : إن الضمير فى (يَتَسَآءَلُونَ) للمسلمين والكافرين ، وكانوا جميعاً يتساءلون عنه : فالمسلم يسأل ليزداد خشية واستعدادًا ، والكافر يسأل ليزداد كفرًا وعناداً .

٤ ـ (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) :

بدأت الآية الكريمة بقوله ـ سبحانه وتعالى ـ : (كَلَّا) لردع منكرى البعث عن التساؤل عنه ، وعن مخالفتهم لرسول الله ﷺ فيه بإنكارهم له أو شكهم فى وقوعه ،

(١) غافر ، الآية : ١٦
(٢) المؤمنون ، الآية : ٣٧
(٣) الجاثية ، من الآية : ٣٢

وقوله تعالى : (سَيَعْلَمُونَ) وعيد لهم وزجر على ما حدث منهم من تساؤل ، واستهزاء وتعليل للردع بطريق الاستئناف ، والسين للتقريب والتأكيد ، أى : ليرتدع هؤلاء عمّا هم فيه ، فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال إذا حل بهم العذاب والنكال ، ونزلت بهم الدواهى ومختلف العقوبات وفى ذلك من الوعيد ما فيه ، وقيل المعنى : سيعلمون ما يتساءلون عنه وهو البعث فيخجلون استخزاءً من تساؤلهم واستهزائهم بين يدى ربهم - عز وجل .

٥ - (ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) :

تكرير لما قبله من الردع والوعيد للمبالغة فيها ، فكأنه قيل : لهم يوم القيامة ردع وعذاب شديدان ، ثم قيل : بل لهم يومئذ عذاب أشد وأشد ، وثم للتفاوت فى رتبة العذاب بين الردع الأول والثانى ، وقيل : إن الجملة الأولى تشير إلى ما يكون عند النزع ، وملاقاة كربات الموت وشدائده وانكشاف الغطاء ، والجملة الثانية تشير إلى ما يكون فى القيامة من زجر ملائكة العذاب ، وملاقاة شديد العقاب ، وعلى هذا ف (ثُمَّ) فى مكانها من إفادة التراخى لما بين الأمرين من البعد الزمانى .

٦ - (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَٰدًا) :

استئناف مَسوق لتحقيق النبأ العظيم بتعداد بعض الدلائل الناطقة بكمال قدرته - تعالى - والتى لا يسعهم إنكارها ، ولا مناص لهم من الإقرار بها فكيف يُنكرون على هذه القدرة إعادة خلق الإنسان علماً بأن مَنْ قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر .

وجوز أن يكون بتقدير (قُلْ) كأنه قيل : قل كيف تنكرون البعث أو تشكون فيه وقد عاينتم ما يدل عليه من القدرة التامة ، والعلم المحيط ، والحكمة الباهرة المقتضية لا يكون ما خُلِق عبثاً ؟ !

والاستفهام فى الآية للتقرير بما بعده ، كأنه قيل لهم : قد جعلنا الأرض التى تسكنونها موطأة لكم كالفراش للاستقرار عليها ، والتقلب فى أنحائها للانتفاع بسهولها الواسعة ، واستخراج كنوزها المتنوعة ، فَأَقِرُّوا بفضل الله عليكم .

٧ - (وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) :

أى : هى للأرض كالأوتاد التى تُشَد بها البيوت من الشعر ونحوه ، صيانة لها من أن يتقاذفها الرياح ، أو تتلاعب بها العواصف ، وعلى ذلك فالجبال لتثبيت الأرض واستقرارها ، حتى لا تميد بكم أو يختل توازنها فى دورانها فلا تصلح لسكناكم ، مع ما فى الجبال من المنافع الجمة التى لم تخلق الأرض لمثلها ، وشبهت بالأوتاد لبروزها ، أو لأنها تحفظ الأرض من الْمَيَدَانِ والاضطراب .

٨ - (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً) :

أى : مزدوجين ذكرًا وأنثى ليتم الائتناس ، والتعاون ، وحفظ الجنس ، وينتظم أمر المعاش ، وقيل : أصنافاً من اللون ، والصورة ، واللسان .

٩ - (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً) :

أى : جعلناه كالسبات - وهو الموت - من السبْت : وهو القطع ، ووجه تشبيه النوم به لما فيه من قطع الحركة والعمل ، وعلى ذلك قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ »[1] وهذا اختيار المحققين ، وقد قيل : النوم أحد الموتتين ، وفى البحر : جعلناه سباتاً ، أى : سكوناً وراحة .. يقال : سبت الرجل : إذا استراح .

١٠ - (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً) :

أى : ساترا لكم بظلمته كما يستركم اللباس ، ويقول الآلوسي : (ولعل المراد بهذا اللباس المشبه به ، ما يُستتر به عند النوم كاللحاف ونحوه ، فإن تشبيه ستر الليل به أكمل ، واعتباره فى تحقيق المقصد أدخل) وهو كون الظلام محيطاً بكم كإحاطة ما يستتر به عند النوم .

والرأى الذى اختاره غير واحد : إرادة الأعم من الذى يستتر به عند النوم وغيره ، وأن المعنى : جعلناه ساترًا لكم بظلمته عن العيون ، وللناس فى هذا الستر فوائد اللباس ، فكما

(١) الأنعام ، من الآية : ٦٠

أن اللباس يستر العورات عن النظر كذلك اللَّيل يستركم عن العيون إذا أردتم هرباً من عدو ، أو فراراً من حيوان مفترس ، ويختفى فيه الكامن للوثوب على عدوه للتخلص منه ، والنجاة من شره ، ويتّقى به كل من أراد ألا يُطلع الناس على كثير من أموره .

١١ - (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً) :

أى : وقت حياة تُبْعثون فيه من نومكم الذى هو أخو الموت ، ولما جعل - سبحانه - النوم موتاً مجازًا جعل - سبحانه - اليقظة حياة كذلك . والنهار زمن هذه الحياة ، فهو وقت معاش ، يستيقظون فيه ويتقلبون فى حوائجهم ومكاسبهم ، قال ابن كثير : أى : جعلناه مشرقاً منيرًا وضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه ، والذهاب والمجىء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك .

١٢ - (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَادًا) :

وهى السمٰوات السبع جعلها - سبحانه - محكمة متقنة وزينها بالكواكب ، ومع اتساعها وارتفاعها لايسقط منها شىء ، ولا تتأثر بمرور الأزمان ، وتتابع الدهور لشدتها البالغة ، والتعبير عن خلقها بالبناء مبنى على تنزيلها منزلة القباب المضروبة على الخلق عند النظر إليها .

١٣ - (وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً) :

أى : وخلقنا وأبدعنا كوكباً مضيئاً متلألئاً ، وهو الشمس التى يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم دائمة الحرارة والتَّوقُّدِ ، قال المفسرون : الوهاج : المتوقد الشديد الإضاءة ويلتهب من شدته ، وقال ابن عباس : المنير المتلألئ .

١٤ - (وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً) :

أى : أنزلنا الماء من السحائب التى أعصرت ، بمعنى قاربت وشارفت أن تعصرها الرياح فتمطر ، ومنه : أعصرت الجارية : إذا قاربت أن تحيض . قال فى التسهيل : المعصرات : هى السحب ، مأخوذة من العصر لأنها تنعصر فينزل الماء . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة :

إن المعصرات الرياح ؛ لأنها ، تعصر السحاب فيمطر ، ولما كان المطر بسببها سميت معصرات والأصل فى المطر تكاثف أبخرة المياه المتصاعدة من المحيطات والبحار ونحوها على شكل سحب ، وتحويلها إلى نقط من الماء أو حبات من الثلج ، أو هما معاً .

(مَآءً ثَجَّاجاً) أى : منصباً بكثرة متتابعاً كما قال مجاهد وقتادة والثورى وابن زيد .

١٥ – (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتاً) :

أى : لنوجد بهذا الماء الكثير النافع مايدخر للأناسى والأنعام ويقتات به كالقمح والشعير وما يؤكل خضرًا ويابساً كالحشيش والتبن ، وتقديم الحب مع تأخره فى الإخراج عن النبات لأصالته وشرفه ؛ لأن غالبه غذاء الإنسان .

١٦ – (وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً) :

أى : ولنخرج به بساتين وحدائق ، وأطلق عليها (جَنَّاتٍ) لأن بكل منهما أشجارًا تستر وجه الأرض ، وقال الفراء : الجنة : ما فيها النخيل ، والفردوس : ما فيه الكرْم .

(أَلْفَافاً) أى : إن هذه الجنات ذات الثمار المتنوعة والألوان المختلفة والطعوم المتميزة والروائح الطيبة قد التفت أغصانها ، وتشابكت أفنانها وتداخل بعضها ببعض ، لتقارب أشجارها وتكامل نموها .

(إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ) : وهو يوم القيامة ؛ لأن الله يفصل فيه بين خلقه .

(يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ) المراد : النفخة الثانية ، والصور : البوق وهو معروف .

(أَفْوَاجاً) أى : ، أمما كل أمة معها إمامها ، أو زُمَرًا وجماعات متباينة .

(فَكَانَتْ أَبْوَاباً) أى : شقوقاً وشروخاً كالأبواب .

(فَكَانَتْ سَرَاباً) أى : مثل سراب ، وهو ما تراه نصف النهار كأنه ماء فإذا جئته لم تجده شيئاً .

(كَانَتْ مِرْصَادًا) أى : موضع رصد وترقب ، ترقب فيه خزنة النَّار الطاغين لتعذيبهم.

(مَآباً) أى : مآلا ومرجعاً .

(مَاكِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً) : دهورًا متتابعة لا نهاية لها ، جمع حُقُبٍ - بضم وسكون ، وبضمتين - وفسر بالدهر أو السنة أو السنين ، وعن ابن مسعود أنه ثمانون سنة ، وعن أبى هريرة وعبد الله بن عمرو وابن عباس وغيرهم أنه سبعون سنة .

(حَمِيماً) : الحميم : هو الماء البالغ الغاية فى الحرارة .

(وَغَسَّاقاً) : وهو ما يسيل من أهل النار من الصديد ، وفى القاموس : البارد المنْتِن .

(كِذَّاباً) أى : تكذيباً شديدًا ، ومجىء (فِعَّال) بمعنى (تفعيل) فى مصدر (فَعَّلَ) سائغ فى الفصيح ، وعن الفراء أنها لغة يمانية .

التفسير

١٧ - (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا) :

بعدأن بين الله لهم بهذه الدلائل المشاهدة قدرته الباهرة ليلزمهم الحجة فى أمر البعث حتى لايجدوا سبيلا إلى جحوده ، بعد ذلك هددهم أشد التهديد ببيان أن الساعة آتية لامحالة ، وفيها فصل القضاء بين الحق والباطل ، والحساب والجزاء ، فقال تعالى:

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً) أى : إن يوم القيامة مؤقت بأجل محدود فى علم الله لبعث الأولين والآخرين لا يزاد عليه ولا ينقص عنه كما قال ـ سبحانه ـ : « وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ »[1] وفى ذلك رد على من كانوا يستعجلون قائلين : « مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[2].

١٨ ـ (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً) :

الآية وما يتلوها نوع تفصيل لكيفية وقوع يوم القيامة وما يقع فيه من أهوال ، و (يَوْمَ) فى قوله تعالى : (يَوْمَ يُنفَخُ) وقع بدلا من يوم الفصل ، أو عطف بيان مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله ، أى : أن يوم الفصل هو يوم النفخ فى الصور الذى يحدث فيه ما يحدث ، والمراد ، النفخة الثانية لإسرافيل ـ عليه السلام ـ فى الصور ، وهو القرن الذى أعد لذلك . وقيل : هذا تصوير لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة فى بوق يصدر عنها صوت عظيم بعيد المدى .

وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور ، وليس علينا أن نعلم ما هى حقيقة هذا الصور ، والبحث فى هذا لا يسوغ ، وليس علينا من حرج فى تركه ، ولا ضير فى تأخير الفصل عن النفخ حسب وقوعه ـ فإن زمان القيامة زمن ممتد يقع النفخ فى أوله ، وفى بقيته الفصل ومباديه وآثاره (فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً) أى : فتبعثون من قبوركم فتأتون إلى الموقف ـ عقب ذلك بغير مهلة أصلا ـ أمما ، كل أمة بإمامها كقوله تعالى : « يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ »[3] أو زُمَرًا وجماعات مختلفة الأحوال متباينة الأوصاف حسب اختلاف الأعمال وتباينها .

١٩ ـ (وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً) :

أى : شقوقاً اتخذها الملائكة طرقاً ومسالك لنزولهم ، كقوله تعالى : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ

(١) هود ، آية : ١٠٤
(٢) يس ، من الآية : ٤٨
(٣) الإسراء ، من الآية : ٧١

السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَٰئِكَةُ تَنزِيلاً »[١] فإذا شققت السماء لوقوع الاضطراب فى نظامها وذهاب التماسك بينها ، فهى كالأبواب ، وقد فسر الفتح بالشق لقوله تعالى : « إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ » وقوله : « إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ » ولعل نكتةَ التعبير بالفتح عن الشق الإشارةُ إلى كمال قدرته — تعالى — حتى كان شق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة وسرعة ، أو على التشبيه البليغ ، أى : فصارت شقوقها لسعتها كالأبواب ، أو فصارت من كثرة شقوقها كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة ، وفى هذا تصوير لما يحدث فى هذا اليوم من شدائد وخطوب .

٢٠ — (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً) :

تمثيل لِمَوْرِ الأرض فى ذلك اليوم حيث تفتتت الجبال بعد اقتلاعها من مقارها ، وسيرت فى الجو على هيئاتها ، كما يعرب عنه قوله تعالى : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ »[٢] .

أى : أنك تراها رأى العين فتحسبها ساكنة فى أماكنها مع أنها تمر مر السحاب الذى تسيره الرياح سيرًا حثيثاً ، وذلك أن الأجرام العظيمة إذا تحركت نحواً من الأنحاء لاتكاد تظهر حركتها وإن كانت فى غاية السرعة ، ولاسيما من بعيد ، ويشير تشبيه سرعة الجبال فى سيرها بسرعة السحاب إلى تشبيه آخر ، وهو تشبيه حالها بحال السحاب فى تخلخل الأجزاء وانتفاشها كما ينطق بذلك قوله تعالى : « وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ »[٣] . وهذا الصنيع العظيم عند حشر الخلائق ليشاهدوها ثم يفرقها — سبحانه — فى الهواء ، وذلك قوله تعالى : (فَكَانَتْ سَرَاباً) أى : فصارت بعد تسييرها مثل سراب ، فترى كأنها جبال ، وليست بجبال ، وإنما هى غبار عظيم متراكم يحسبه الناظر إليه من بعيد جبلا ، ولكنه ليس بشىء كالسراب يحسبه الرائى وقت الظهيرة ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

---

(١) الفرقان ، الآية : ٢٥

(٢) النمل ، من الآية : ٨٨

(٣) القارعة ، الآية : رقم ٥

فالكلام على التشبيه البليغ ، والجامع بين المشبه والمشبه به أن كلا من الجبال والسراب يُرَى على شكل شيء وليس هو بذلك الشيء ، والجبال وإن اندكت انصدعت عند النفخة الأُولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكون عند النفخة الثانية ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ »[1] واتباع الداعى وهو إسرافيل – عليه السلام – يكون بعد النفخة الثانية .

٢١ – (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) :

شروع فى وعيد المكذبين ، وبيان ما يلاقونه من عذاب ونكال فى جهنم دار إقامتهم التى لايبرحونها أبدًا أى : إنها موضع ترصُّد وترقُّب ، ترصد فيه خزنة النَّار الكافرين ليعذبوهم ، وترصد الجنة المؤمنين ليحرسوهم من قبحها فى مجازهم عليها ، وقيل : ترصد الملائكة الطائفتين ، لتنقذ إحداهما وهى المؤمنة ، وتعذب الأُخرى وهى الكافرة ، وقد يفسر المرصاد بمطلق الطريق ، وهو أحد معانيه ، فيكون للطائفتين ، قال الحسن ، وقتادة فى قوله تعالى : (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) أى : إنه لايدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار ، فإذا كان معه جواز نجا ، وإلا احتبس ، وقيل : اعلموا أنه لاسبيل إلى الجنة حتى تقطع النار . ذلك لأنها مجاز وممر للجميع .

٢٢ – (لِلطَّاغِينَ مَآباً) :

أى : إنها تكون للمردة العصاة المخالفين للرسل مقرًّا ومرجعاً يرجعون إليه ، ويقيمون فيه . يتجرعون فيه عذاباً غليظاً ، وعقاباً شديدا كلما نضجت جلودهم بدلهم الله غيرها ليستمر إحساسهم بالألم وشعورهم به .

٢٣ – (لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً) :

أى : ماكثين فيها يصلون سعيرها دهورًا متتابعة ، كلما مضى منها حقب تبعه آخر

(١) طه ، الآيات : ١٠٥ – ١٠٧ وصدر الآية : ١٠٨

إلى مالا نهاية فلا يخرجون منها أبدًا ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ويؤيد ذلك ماروى عن الحسن أنه قال : الحقب زمان غير محدود .

٢٤ ، ٢٥ - (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا) :

أى : لا يذوقون فى جهنم شيئاً ما من برد ، ويراد به برد النسيم الذى يريحهم ، وينفس عنهم حر النار . وقيل : يراد به النوم ، فقد ورد عن بعض العرب : منع البردُ البردَ ، أى : النوم ، ولا يذوقون شيئاً من شراب يروى غلتهم ، ويسكن عطشهم فيها ، (إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً) : لكن يتجرعون فيها حميماً ، وهو الماء الحار البالغ غاية الحرارة ، وغساقاً وهو ما يسيل من جلود أهل النار من صديد ، وقيح ، وعرق ، ودموع ، وفى الحديث : (إنَّ الرجلَ منهم إذا أدنَى ذلكَ من فيهِ سقطَ أديمُ وجْهِه حتى يبقَى عظاماً تَقَعْقع) ذكره الآلوسى.

٢٦ - (جَزَاءً وِفَاقاً) :

أى : الذى صاروا إليه من العذاب جزاء موافق لأعمالهم السيئة فى الدنيا ، بمعنى أنه يقدرها فى الشدة والضعف لايزيد عليها ولا ينقص عنها ، كما يقتضيه عدل الله ورحمته .

٢٧ - (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً) :

تعليل لاستحقاقهم هذا العذاب ، أى : لأنهم كانوا لا يخافون أن يحاسبوا بأعمالهم التى اقترفوها . إمعاناً منهم فى الكفر والطغيان ، أو لم يكونوا يعتقدون أن ثم دارًا يجازون فيها ويحاسبون .

٢٨ - (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً) :

المعنى : أنهم كانوا يكذبون بآيات الله الدالة على البعث ، أو التى أنزلها على رسله تكذيباً شديدًا مفرطاً .

٢٩ - (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) :

أى : وكل شىء من الأشياء التى من جملتها أعمالهم . قال أبو حيان : وكل شىء مما يقع

عليه الحساب والعقاب فهو عام مخصوص (أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً) أى : حفظناه وضبطناه بإحصائنا له إحصاء تاماً ، وقد جعل قوله : (كِتَاباً) مصدرًا مؤكدًا لأحصينا ، لأن الكتابة والإحصاء يتشاركان فى معنى الضبط ، وأصل الإحصاء : من لفظ (الحصا) وكانوا يعتمدون عليها فى العد ضبطاً قويًّا تاماً .

ويجوز أن يكون المراد : وكل شىء أحصيناه مكتوباً فى اللوح المحفوظ ، أو فى صحف الحفظة ، والظاهر أن الكلام على حقيقته ، والكتابة هنا على النحو الذى يليق بتنزيه الله تعالى ، وهو أعلى من كتابتنا التى نعرفها ، وأشد ضبطا ، وقال بعضهم : إنه تمثيل لصورة ضبط الأشياء فى علمه تعالى بضبط المحصى المجد المتْقن للضبط بالكتابة ، وهذا التمثيل لتفهيمنا ، وإلا فالانضباط فى علمه تعالى أجل وأعلى من أن يمثل بشىء . والجملة اعتراض لتأكيد الوعيد السابق الذى بدىء به بقوله تعالى : (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً) لبيان أن ذلك كان لامحالة لأن معاصيهم مضبوطة مكتوبة يواجهون بها يوم الجزاء .

٣٠ ـ (فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً) :

ذلك مسبب عن كفرهم بالحساب والجزاء ، وتكذيبهم الآيات . روى قتادة عن أبي أيوب الأزدى عن عبد الله بن عمر أنه قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه ، فهم فى مزيد من العذاب أبدًا ، وأخرج عبد بن حميد ، وجماعة عن الحسن أنه قال : سألت أبا برزة الأسلمى عن أشد آية فى كتاب الله تعالى فقال : (فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً) ووجه الأشدية على ما قيل : إنه تقريع فى يوم الجزاء ، وغضب من أرحم الراحمين ، وتأييس لهم .

واستشكل أمر زيادة العذاب بمنافاتها كون الجزاء موافقاً للأعمال كما فى قوله تعالى : (جَزَآءً وِفَاقاً) وأجيب بأن العذاب لما كان للكفر والمعاصى ، وهى متزايدة فى القبح فى كل آن ، وعلم الله لسوء استعدادهم استمرارهم على ذلك ، اقتضى حالهم زيادة العذاب وشدته يوماً فيوماً وقيل : لما كان كفرهم أعظم كفر ، اقتضى أشد عذاب ، والعذاب المزيد يوماً فيوماً من أشد العذاب ، وقيل غير ذلك .

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا) : أى : فوزًا وظفرًا بطلباتهم ورغباتهم ، أو محل فوز بذلك وهو الجنة .

(وَأَعْنَابًا) : جمع عنب ، ويقال للكرم نفسه ولثمرته .

(كَوَاعِبَ) : جمع كاعب ، وهى التى برز ثدياها واستدارًا مع ارتفاع يسير .

(أَتْرَاباً) : متساويات فى العمر تشبيهاً لها فى التساوى والتماثل بالترائب وهى ضلوع الصدر.

(كَأْساً دِهَاقاً) : مملوءة . يقال : دهقت الكأس وأدهقتها ، والكأس إناء يشرب فيه أو مادام الشراب فيه كما فى القاموس .

(لَغْوًا) : ما لا يعتد به من الكلام .

التفسير

٣١ - (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا) :

شروع فى بيان أحوال المؤمنين الأبرار إثر بيان سوء أحوال الكافرين أهل النار ، أى : إن للمتقين الذين تمسكوا بطاعة ربهم ، واتقوا الكفر ، إن لهؤلاء فوزًا وظفرًا فى الدنيا بكل محبوب ، ونجاة وسلامة من كل مكروه ، أو أن لهم موضع فوز وظفر بجنات النعيم ، وخلاص ونجاة من عذاب الجحيم .

ثم بين سبحانه هذا الفوز فقال :

٣٢ ـ (حَدَآئِقَ وَأَعْنَاباً) :

أى : بساتين فيها أنواع من الأشجار المثمرة ، والأزهار المتفتحة ، وأعناباً وهى الثمار المعروفة أو أشجارها وخصت بالذكر مع اندراجها فى البساتين إشارة لأهميتها والاعتناء بها .

٣٣ ـ (وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً) :

أى : بنات قد استدارت نهودهن مع ارتفاع يسير ، متساويات فى العمر مع التماثل فى صفات الجمال والكمال ، والتمتع بالبنات المتصفات بذلك فى الجنة على صورة لا نعلم حقيقتها ، وغاية ما يجب أن نصدق به ، أنه تمتع فائق اللذة على وفق ما يناسب ذلك العالم الأخروى .

٣٤ ـ (وَكَأْساً دِهَاقاً) :

أى : وكأساً من الخمر مملوءة مترعة . صحح الحاكم عن ابن عباس ما رواه غير واحد أنه قال : هى الممتلئة المترعة المتتابعة ، وأخرج ابن جرير عن عكرمة أنه قال : دهاقاً : أى صافية ، ، وقال القرطبى : المراد بالكأس الخمر ، كأنه قال : وخمر ذات دهاق : أى : عُصِرت وصُفيِّت .

٣٥ ـ (لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّاباً) :

أى : إن أسماع أهل الجنة مصونة عن سماع ما لا يعتد به من الكلام ، وهو الذى يُورد ويقال لا عن رَوِيَّة وفكر كما قال الراغب ، لأنه يجرى مجرى اللُّغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطير ، وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا ، وكذا كل ما لا يعتد به مطلقاً عن روية أو غيرها ، كما أنها مصونة عن سماع الكذب من القول لأنها دار السلام وكل ما فيها نقى من الباطل والنقص ، وقد تضمنت هذه المذكورات أنواعاً من اللذات الحسية كما هو واضح .

٣٦ ـ (جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً) :

أى : إن الجزاء الذى جوزى به المتقون حصل لهم بتوفيق ربك - أيها النبى - وتأييده ويشير إضافة الرب إليه ﷺ دونهم إلى تشريفه - صلوات الله عليه - (عَطَآءً) أى : تفضلا وإحساناً منه تعالى : إذ لايجب عليه - سبحانه - شىء (حِسَاباً) أى : كافياً لهم وافرًا شاملا ، من قولهم : أحسبهُ الشىء : إذا كفاه حتى قال حسبى ، ومنه : حسبى الله. وقيل : معناه : كون الجزاء على حسب أعمالهم.

أى : مقسطاً على قدرها ، وروى ذلك عن مجاهد ، وكأن المراد بذلك مقسط بعد التضعيف ، وبذلك يندفع ما قيل : إنَّه غير مناسب لتضعيف الحسنات ، ولهذا لم يقل هنا (وِفَاقاً) كما قيل فى الآية السابقة : (جَزَاءً وِفَاقاً) .

(رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(خِطَاباً) أى : لا يقدر أحد أن يخاطبه سبحانه فى رفع بلاء أو دفع عذاب فى ذلك اليوم ، هيبة وجلالاً .

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ) : هو جبريل – عليه السلام – وقد ورد ذكره كثيرًا بذلك . واختلف المفسرون فى المراد من الروح ما هو ، على أقوال ، منها ما روى عن ابن عباس أنه قال : إنهم أرواح بنى آدم ، وقيل : إنه ملك عظيم أو إنهم أشراف الملائكة ، أو إنه جبريل – عليه السلام – قاله الشعبى ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، ويستشهد لهذا القول بقوله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ »[1] وهذا الرأى أوفق الآراء .

(فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً) أى : مرجعاً .

(يَالَيْتَنِى كُنتُ تُرَاباً) : يتمنى الكافر أن لو كان فى الدنيا تراباً فلم يُخلَق بشرًا ، ولم يكلف

التفسير

٣٧ – (رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً) :

أى : إن هذا الجزاء الموفور من ربك العظيم فاطر السمٰوات والأرض وما بينهما على غير مثال يحتذيه (الرَّحْمٰنِ) الذى وسعت رحمته كل شىء ، ولاشك أن فى ذكر ربوبيته تعالى لجميع الخلق ، ورحمته الواسعة إشعارًا بمقدار الجزاء المذكور (لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً) استئناف مقرر لما أفادته الربوبية العامة من غاية العظمة والكبرياء ، واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء ، فلا يكون لأحدنا قدرة عليه ، وضمير (لَا يَمْلِكُونَ) لأهل السمٰوات والأرض ، والمراد نفى قدرتهم على أن يخاطبوه تعالى بشىء من نقص العذاب أو زيادة الثواب بغير إذنه على أبلغ وجه وآكده ، كما قال تعالى : « يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ »[2]

٣٨ – (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً) :

---

(١) الشعراء ، الآيتان : ١٩٣ ، ١٩٤

(٢) هود ، من الآية رقم : ١٠٥

المعنى أنه فى هذا اليوم الرهيب ، يقف جبريل - عليه السلام والملائكة - مخلوقات الله الغيبية - مصطفين ، فيقف جبريل وحده صفًّا ، والملائكة صفًّا آخر ، وقيل : صفوفاً ؛ لقوله تعالى : « وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا »[1] وذكر قيامهم واصطفافهم لتحقيق سلطانه وكبرياء ربوبيته ، وتهويل يوم البعث الذى عليه مدار الكلام من مطلع السورة الكريمة إلى آخرها .

(لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَاباً) الضمير فى (لَا يَتَكَلَّمُونَ) لأهل السمٰوات والأرض الذين من جملتهم الروح والملائكة ، والآية استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى : (لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً) ومؤكد له على معنى أن أهل السمٰوات والأرض إذا لم يقدروا حينئذ على أن يتكلموا بشىء من جنس الكلام إلا من أذن الله له منهم فى التكلم مطلقاً ، وقال ذلك المأذون قولا صوابا أى : حقاً من الشفاعة لمن ارتضى .

وإظهار (الرَّحْمَٰنُ) فى موضع الإضمار للإيذان بأن مناط الإذن الرحمة البالغة ، لا أن أحداً يستحق ذلك عليه سبحانه وتعالى .

٣٩ - (ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَئَاباً) :

ذلك إشارة إلى يوم قيام الروح والملائكة على الوجه الذى ذكر ، وما فى الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو درجته ، وبعد منزلته فى الهول والفخامة أى : إن ذلك اليوم العظيم الذى يقوم فيه الروح والملائكة مصطفين غير قادرين هم ولاغيرهم على التكلم فيه من الهيبة والجلال ، هو يوم القيامة الذى أخبر عنه - سبحانه - بأنه الحق ، أى : الثابت المتحقق الذى لا ريب فى وقوعه من غير صارف يلويه ، ولاعاطف يثنيه .

(فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآباً) أى : إذا كان الأمر كما ذكر من تحقيق اليوم وإتيانه بلا شك فى وقته المعين له ، فمن شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه فليفعل ذلك بالإيمان والعمل الصالح ، وهو حث وترغيب ، فى سلوك الطريق القويم ، وتقدير المضاف وهو لفظ (ثَوَاب) قبل لفظ (رَبِّهِ) لاستحالة الرجوع إلى ذاته تعالى .

---

(١) سورة الفجر ، الآية رقم : ٢٢

٤٠ ـ (إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِى كُنتُ تُرَاباً) :

الخطاب لكفار قريش المنكرين للبعث .

والمعنى : إنا خوفناكم بما ذكر فى السورة من الآيات الناطقة بما فى البعث وما بعده من الدواهى .

أو بها وبسائر القوارع الواردة فى القرآن العظيم (عَذَاباً قَرِيباً) هو عذاب الآخرة ، وقربه لتحقق وقوعه حتماً ، فقد قيل : ما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هو آت ، أو لأنه قريب بالنسبة إليه تعالى : « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيباً »[١] .

(يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) أى : إن الذى أنذرناكم به عذاب كائن يوم يشاهد المكلف مؤمناً أو كافرًا ما قدمه من خير أو شر مثبتاً فى صحائف أعماله كقوله تعالى : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا »[٢] وقوله سبحانه : « يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »[٣] وقوله : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ »[٤] إلى غير ذلك من الآيات ، وما اليوم الذى يحدث فيه ذلك إلا يوم القيامة . (وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِى كُنتُ تُرَاباً) أى : ويتمنى الكافر فيه أن لو كان تراباً فى الدنيا فلم يخلق ولم يكلف ، أو يتمنى ذلك فى هذا اليوم فلم يبعث حتى ينجو من الحساب والعقاب ، وعن أبى هريرة وابن عمر ومجاهد أن الله يحضر البهائم فيقتص من بعضها لبعض ، ثم يقول لها : كونى تراباً ، فتعود جميعاً تراباً ، فإذا رأى الكافر ذلك تمنى مثله ، وفى ذكر قول الكافر تخصيص لأحد الفريقين اللذين تناولهما لفظ (الْمَرْءُ) الذى ذكر فى الآية وأريد منه الكافر والمؤمن كما قيل على المشهور .

---

(١) المعارج ، الآيتان : ٦ ، ٧
(٢) الكهف ، من الآية : ٤٩
(٣) القيامة ، الآية : ١٣
(٤) آل عمران ، من الآية : ٣٠

سـورة النازعات

مكية وعدد آياتها ست وأربعون آية

وكما تسمى النازعات تسمى ايضا الساهرة ، والطامة

مناسبتها لما قبلها :

قال ابن عباس : إن أولها يشبه أن يكون قسماً لتحقيق ما فى سورة عَمَّ ، أو ماتضمنته كلها من بعث النَّاس وقيامهم للحساب والجزاء ، وفى البحر : لما ذكر سبحانه فى آخر ما قبلها الإنذار بالعذاب يوم القيامة أقسم – عزو جل – فى هذه على البعث فى ذلك اليوم الذى يقع الإنذار بالعذاب فيه .

اهم مقاصـد السورة :

افتتحت بالقسم بطوائف الملائكة الأبرار على تحقق البعث ، تُزلزِل النفخة الأُولى جميع الكائنات ، تتبعها النفخة الثانية لتهب الخلائق قياماً للجزاء والحساب : (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ....) الآيات .

ثم تحدثت عن استبعاد المشركين للبعث والنشور ولا سيا بعد أن بليت أجسام الموتى وتفتت عظامهم ، وصاروا أثرًا بعد عين ، ثم ذكرت الرد عليهم بما يسقط حجتهم ، ويبطل عجبهم أمام القدرة العظيمة . (يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ ..) إلخ . ثم تناولت قصة فرعون الذى ادعى الأُلوهية ، وتمادى فى الطغيان والجبروت ، فكانت عاقبته الدمار والهلاك وعذاب الآخرة والأُولى هو وقومه الذين كانوا أعواناً له فى ظلمه وبغيه ، وذلك لتسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من أهل مكة : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ..) الآيات ، ثم ذكَّرت الإنسان بسعيه ، وأظهرت ما ينتظر الطغاة أهل مكة ، وما أُعد لمن خاف مقام ربه (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ..) الآيات ، ثم أنكرت ونعت على منكرى البعث تكذيبهم به ، وهم فى منطق الحق والواقع ليسوا بأشد خلقاً من السماء والأرض وتوابعهما من مظاهر القدرة البالغة (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ..) الآيات .

وضحت السورة بالحديث عن وقت الساعة ، وأن بيانه لله وحده . أمّا وظيفة الرسول ﷺ فهى الإخبار — عن قربها ، والتذكير بها وبما يكون فيها من أهوال لا يُعيِّن وقتها (يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَٰهَا ...) الآيات .

كما أشارت فى الختام أيضاً إلى أن ما أصابهم من فزع ، أنساهم الزمن الذى مر بهم حتى حسبوا أن الوقت بين إنذارهم بالبعث إلى قيامهم من قبورهم للجزاء ، عشية أو ضحى من يوم واحد (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ..) الآية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤)

المفردات :

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً) أى : الملائكة التى تنزع أرواح الكفار من أقاصى أجسامهم نزعاً بالغ الشدة ، يقال : أغرق فى الشىء يغرق فيه : إذا أوْغَل وبلغ أقصى غايته .

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً) : الملائكة تنشط وتقبض أرواح المؤمنين برفق ولين من النشط وهو الإخراج بيسر وسهولة ، ومنه بئر أنشاط : قريبة القاع يُخْرِج منها الدلو بجذبة واحدة .

(وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً) : الملائكة تسرع بما أمرت به ، ومنه قيل للجواد المسرع : سابح .

(الرَّاجِفَةُ) : النفخة الثانية التى تردف وتتبع الأُولى ، وبها يبعث الموتى بأمره تعالى ، يقال : ردفه كسمع ونصر : إذا أتبعه كأردفه .

(وَاجِفَةٌ) : شديدة الاضطراب من الخوف والفزع يقال : وجف القلب يجف وجْفاً ووجيفاً : إذا اضطرب من شدة الفزع .

(أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ) يقال : رجع فلان فى حافرته وعلى حافرته ، أى : طريقه التى جاء فيها .

(نَخِرَةً) : بالية متفتتة ، من نخر العظم ينخر من باب تعب : إذا بلى وتفتت .

(خَاسِرَةٌ) أى رجعة غير رابحة من الكر وهو الرجوع .

(بِالسَّاهِرَةِ) : وهى وجه الأرض ، والعرب تسميه ساهرة ؛ لأن فيه نوم الحيوان وسهره .

التفسير

١ ـ (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً) :

هذه أولُ الطوائف الخمس من الملائكة الموكلين بأعمال جسام بأمره تعالى ، وهم الذين أقسم سبحانه بهم على أن الخلق لا بد أن يبعثوا ويحاسبوا ، وجواب القسم أشار إليه مضمرا ، كأنه قال : لتبعثن ولتحاسبن ، وذلك لمعرفة السامعين بالمعنى ، وقيل غير ذلك .

والطائفة الأُولى هى ملائكة العذاب التى تنزع أرواح الكفار بقسوة وشدة من أقاصى أجسامهم نزعاً بالغا غاية الصعوبة والعسر كما يشير إلى ذلك قوله : (غَرْقاً) أى : إغراقاً ومبالغة فيما يؤلمهم ويؤذيهم ، وتختص هذه الطائفة بأُولئك الكفار على ما أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وعن على ـ كرم الله وجهه ـ وقال ابن مسعود : تنزع الملائكة روح الكافر من جسده من تحت كل شعرة ، ومن تحت الأظافر وأُصول القدمين ، ثم تفرقها فى جسده ثم تنزعها حتى إذا كادت تخرج تردها فى جسده وهكذا مرارًا .

٢ ـ (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً) :

وهى ملائكة الرحمة التى تنشط أرواح المؤمنين برفق ولين ، وذلك مما يشير إلى سرعة الإخراج وعدم حاجته إلى معالجة وجهد ، يقال : بئر أنشاط ، أى : قريبة القاع يخرج منها الماء بجذبة واحدة .

فالمادة تدل على الرفق والسهولة .

٣ ـ (وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً) :

الملائكة التى تنزل من السماء بأمر الله ووحيه كالذى يسبح فى الماء مسرعين لتنفيذ أمره ، وقال بعض السلف : همُ الملائكة يسلون أرواح المؤمنين سلًّا رقيقاً ، ثم يتركونها حتى تستريح رويدًا ثم يستخرجونها برفق ولطف ، كالذى يسبح فى الماء ، فإنه يتحرك برفق ، فهم يرفقون فى هذا الاستخراج لئلا يصل إلى المؤمن ألم وشدة .

٤ ـ (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا) :

الملائكة تَسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة بسرعة ، قال الحسن : هى الملائكة التى سبقت إلى الإيمان والتصديق بالبعث .

٥ ـ (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) :

الملائكة تدبر شئون الكون من السماء إلى الأرض بأمره تعالى من الرياح ، والأمطار ، والأرزاق ، والأعمار ، وغير ذلك من شئون الدنيا ، وتنكير قوله : (أَمْرًا) للتهويل والتفخيم ، وعطف الآيتين بالفاء للإشارة إلى ترتيبها على ما قبلها من غير مهلة ، وقيل : إن الإقسام هو بِخَيْل الغزاة التى تنزع فى أعنتها نزعاً تغوق الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب ، وبالتى تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب من قولك : ثورنا شط : إذا خرج من بلد إلى بلد ، وبالتى تسبح فى جريها فتسبق إلى الغاية ، فتدبر أمر الغلبة والظفر ، وإسناد أمر التدبير إليها لأنها من أسبابه .

وقيل : إن الإقسام بالنجوم السيارة التى تنزع من المشرق إلى المغرب ، أى : تسير ، وإغراقها فى النزع : أن تقطع الفلك كله على ما يبدو للناس حتى تخط فى أقصى الغرب ، وبالتى تنشط ، أى : تخرج من برج إلى برج ، وبالتى تسبح فى الفلك فتسبق ، فتدبر أمرًا نيط بها كاختلاف الفصول ، وتقدير الأزمنة ، وظهور مواقيت العبادات ، والمعاملات المؤجلة إلى غير ذلك ، وقيل غير ما ذكر ، إلاَّ أن القسم بطوائف الملائكة هو ماعليه أكثر المفسرين بل قال ابن عطية : لا أحفظ خلافا فى أنها الملائكة ، وليس فى تفسير شىء مما ذكر خبر صحيح عن رسول الله ﷺ فيما أعلم . ويقول الآلوسى : وما ذكرته أولا من الإقسام بالملائكة هو المرجح عندى نظرًا للمقام .

٦ ، ٧ ـ (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) :

أى : لتبعثن يوم تتحرك الراجفة رجفة شديدة تهتز وترجف عندها الأجرام الثابتة كالأرض والجبال ، وبها يختل الأمر ، ويضطرب النظام ، ويصعق كل شىء بأمره تعالى ، وهى النفخة الأولى (تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) أى : الواقعة والصيحة التى تردف الأولى .

وإسناد الرجف إليها على أنها فاعلته إسناد مجازى. وجوز أن تفسر الراجفة بالمحركة ويكون ذلك حقيقة ، لأن (رجف) يكون بمعنى حرك وتحرك كما فى القاموس .

وتتبعها وهى النفخة الثانية التى بها يسرع الخلق قياماً من قبورهم ينتظرون الجزاء والحساب

والمراد لتبعثن فى اليوم الذى تقع فيه النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها لاقبلها باعتبار امتداد ذلك اليوم لاحتواء النفختين واعتبار امتداده مع أن البعث لايكون إلا عند وقوع النفخة الثانية لتهويل اليوم ببيان كونه موقعاً لداهيتين عظيمتين ، لايبقى عند وقوع الأولى حىّ إلاَّ مات ، ولا عند وقوع الثانية ميت إلا بعث ، وقيل المعنى : لتبعثن ، كأنه قيل لرسول الله ﷺ : اذكر لهم يوم النفختين فإنه وقت بعثهم .

٨ ، ٩ ـ (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) :

أى : قلوب منكرى البعث فى ذلك اليوم مضطربة خائفة وجلة ، وعن السدى : زائلة من أماكنها كما فى قوله تعالى : « إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ[1] » يعنى تزول من مكانها لتصل إلى الحناجر .

---

(١) غافر ، من الآية : ١٨

(أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) أى : أبصار أصحاب هذه القلوب ذليلة حسيرة مما عانت من الأهوال والشدائد ، وقد أريد من وجيف القلوب شدة الخوف الواقع بأربابها فهى كناية عنهم .

١٠ - (يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ) :

حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به إثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمى ، وذكر مقدماته الهائلة ، وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار .

والمعنى : إن منكرى البعث يقولون - إنكارًا له ، واستبعادًا لوقوعه إذا قيل لهم فى الدنيا إنكم مبعوثون : (أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ) يعنون الحياة التى كانوا عليها أول الأمر قبل موتهم يقال لمن كان فى أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع فى حافرته ، أى : فى طريقه التى جاء منها فحفرها ، بمعنى أثر فيها بمشيه ، وتسميتها حافرة مع أنها محفورة ، لنسبتها إلى الحفر ، أو على المجاز كما فى قوله تعالى : « فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ »[1] أى : منسوبة إلى الرضا ، أو على المجاز وقيل : إنه - تعالى شأنه - لما أقسم على البعث ، وبين ذلهم وخوفهم ذكر هنا إقرارهم بالبعث ، وردهم إلى الحياة بعد الموت ، فالاستفهام لاستغراب ما شاهدوه بعد الإنكار والجملة استئناف لبيان ما يقولون إذ ذاك .

١١ - (أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً) :

تأكيد لإنكار البعث بذكر حالة منافية لحصوله أى : أئذا كنا عظاما بليت وتفتت واختلطت بتراب الأرض نُرد ونُبعث مع كون تلك الحالة أبعد شىء من الحياة ، ذلك أمر بعيد الحصول .

وفرق بين العظام الناخرة والنخرة - حيث إن النخرة فسرت بالأشد بِلًى ، قال عمرو بن العلاء : النخرة : التى بليت ، والناخرة التى لم تنخر بعدُ ، ونقل اتحاد المعنى عن غيره .

---

(١) الحاقة ، آية ٢١ . والقارعة آية : ٧

١٢ - ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ :

حكاية لكفر آخر من منكرى البعث متفرع عن كفرهم السابق الذى أنكروا فيه البعث ، أى : قالوا بطريق الاستهزاء مشيرين إلى ما أنكروه من الرد فى الحافرة مشعرين بغاية بعده عن الوقوع : ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أى : رجعة ذات خُسْر ، أو خاسر أهلها ، بمعنى إذا صحت تلك الرجعة وعدنا إلى ما كنا عليه من الحياة فنحن خاسرون لتكذيبنا بها ، وأبرزوا ما قطعوا بانتفائه واستحالته فى صورة ما يغلب على الظن وقوعه لمزيد من الاستهزاء والسخرية .

١٣ - ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ :

تقليل لإنكارهم إحياء الموتى الذى عبروا عنه بالكرَّة ولما كان مدار إنكارهم للكرَّة استصعابهم لها ، رد عليهم سبحانه بالآية الكريمة : لا تحسبوا تلك الكرَّة صعبة على الله - عز وجل - فإنها سهلة هينة لأنها ما هى إلا صيحة واحدة تحصل بها الرجعة وتتحقق ، وهى النفخة الثانية ، وعبر عنها بالزجرة تنبيها على كمال اتصالها بها كأنها عينها ، وبهذه النفخة التى ينفخها إسرافيل - عليه السلام - فى الصور يبعث الله الأولين والآخرين فإذا هم قيام بين يدى الرب - عز وجل - ينظرون ، كما قال - سبحانه - : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] وكما قال جل وعلا : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[2] .

١٤ - ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ :

بيان لترتيب الرجعة على الزجرة مفاجأة ، أى : فإذا هم حضور فى الموقف على وجه الأرض بعدما كانوا أمواتاً فى جوفها ، قال ابن عباس : الساهرة : الأرض كلها ، وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة ، وحكى الراغب فى الساهرة قولين : الأول : أنها وجه الأرض ، والثانى أنها أرض القيامة ، وفى الكشاف : الأرض البيضاء التى لا نبات فيها المستوية ، سميت

(١) الإسراء ، الآية : ٥٢

(٢) سورة القمر ، الآية : ٥٠

بذلك لأن السراب يجرى فيها من قولهم : عين ساهرة : جارية الماء ، وفى ضدها : عين نائمة ، أى : أن سالكها لا ينام خوف الهلكة ، إلى غير ذلك من الأقوال التى ذكرها المفسرون .

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ) الوادى المطهر المبارك .

(طُوًى) : اسم للوادى المقدس على الصحيح .

((إِنَّهُ طَغَىٰ) : جاوز الحد فى الظلم والطغيان .

(إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ) : إلى أن تسلم وتطيع وتطهر من الذنوب .

(الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ) : هى قلب العصا حيَّة ، أو هى اليد البيضاء .

(ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ) : ثم تولى وأعرض عن الإيمان مجدًّا فى معارضته .

(فَحَشَرَ) : فجمع السحرة من المدائن ، أو الجند ، أو هما معاً (فَحَشَرَ) : من الحشر ، وهو إخراج الجماعة من مقرهم ، وتوجيههم إلى الحرب ونحوها .

(نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ) : وهو عذاب الآخرة بالإحراق ، وعذاب الأولى بالإغراق ، والنكال : مصدر بمعنى التنكيل .

التفسير

١٥ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ) :

يخبر الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ عن عبده ورسوله موسى - عليه السلام - أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيده بالمعجزات البينات ، ومع ذلك استمر عدو الله على كفره وعصيانه سادرًا فى بغيه وظلمه حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وكذلك عاقبة من خالفك ، وكذب بما جئت به ، وفى هذا تسلية لرسوله - ﷺ - من تكذيب قومه ، وتهديدهم له بأن يصيبهم مثل ما أصاب من كان أقوى منهم وأعظم . ولهذا قال سبحانه فى آخر القصة : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ) والاستفهام فى الآية لحمل رسوله ﷺ أن يستمع إلى أمر يعرفه قبل ذلك ، كأنه قيل : أليس قد أتاك حديث موسى - عليه السلام - ؟ ! أو الاستفهام ترغيب لسماع القصة إن اعتبر أن هذا أول ما أتاه من حديثه - عليه السلام - كأنه قيل : هل أتاك حديثه ؟ أنا أخبرك به ، والأول هو المتبادر .

١٦ - (إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) :

أى : كان حديث موسى فى الوقت الذى : ناداه ربه سبحانه بالوادى المبارك المطهر وهو واد فى أسفل جبل طور سيناء من برية الشام ، (طُوًى) : اسم لذلك الوادى المقدس مرة بعد أخرى .

١٧ - (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ) :

على إرادة القول ، أى : قائلا له : (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ) الآية ، أو تفسير للنداء ، أى : ناداه (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ) ... إلخ . (إِنَّهُ طَغَىٰ) : جاوز الحد فى الطغيان على رعيته من بنى إسرائيل ، وعلا فى الكبر والعظمة ظناً منه أن هذا من مظاهر الألوهية ، والجملة تعليل للأمر بالذهاب إليه ، أو لو جود الأمر بالامتثال بما أمر به .

١٨ – (فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ) :

أى : فقل له : هل لك رغبة فى أن تتطهر من دنس الكفر والعصيان ، ورذائل الأخلاق والعادات ؟ وهو استفهام يقصد به العرض والطلب ، وهو أفضل أنواعه ، وأوفقها باللطف والأدب فى الدعوة ، وقدّم طلب التطهر على طلب الهداية فى الآية التالية ، لأنها تخلية ، وهى مقدمة على التحلية .

١٩ – (وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) :

أى : وهل تحب أن أدلك وأرشدك إلى معرفة ربك فتعرفه ؟ (فَتَخْشَىٰ) : بأن يصير قلبك خاضعاً لله مطيعاً بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيدًا عن الخير ، وبأن يمتلىء علماً بجلاله وعلو شأنه كما قال تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »[1] فمن اتقاه أمن عقابه ، والخشية : ملاك الأمر ، وغاية الهداية ، من تمسك بها أتى منه كل خير ، ومن تركها اجترأ على كل شر ، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذى عن أبى هريرة : « مَنْ خافَ أدلجَ[2] ومَن أدلجَ بلغَ المنزلَ » وعن بعض الحكماء : اعرف الله ، فمن عرف الله لم يقدر أن يعصيَهُ طرفةَ عين.

٢٠ – (فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ) :

أى : لما لم يقتنع فرعون بالدليل القولى ، أظهر – سبحانه – له آية ودليلا يراه بعينه بعدما جرى بين موسى – عليه السلام – وبينه من المحاورات إلى أن : « قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »[3] والمراد بالآية الكبرى على ما روى عن ابن عباس : قلب العصا حيّة ، فإنها كانت المقدمة والأصل ، والأخريات كالتبع أو على ماروى عن مجاهد : ذلك واليد البيضاء ، فإنها باعتبار الدلالة كالآية الواحدة ، وقد عبر عنهما بصيغة الجمع فى قوله تعالى فى سورة طه : « اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي » باعتبار مافى تضاعيفهما من بدائع الأمور التى كُلٌّ منها آية لقوم يعلمون ، وكونها كبرى باعتبار معجزات من قبله

---

(١) سورة فاطر : من الآية ٢٨

(٢) الدلج محركة ، والدلجة بالضم والفتح : السير من أول الليل ، وقد أدلجوا . اهـ : قاموس ، والمراد مواصلة العمل لبلوغ الغاية .

(٣) الأعراف ، الآية : ١٠٦

من الرسل - عليهم السلام - ولا مساغ لحمل « آياتى » فى الآية المذكورة على مجموع معجزاته فإن ماعدا هاتين الآيتين من الآيات التسع إنما ظهرت على يده - عليه السلام - على مهل بعد ما غلب السحرة . وترتيب حشد السحرة لم يكن إلا على إرادة هاتين الآيتين .

٢١ - (فَكَذَّبَ وَعَصَى) :

أى : فكذب فرعون بموسى - عليه السلام - واعتبر معجزاته الباهرة سحرًا (وَعَصَى) الله - عز وجل - بالتمرد على نبيه بعدما علم صحة الدعوة أشد عصيان وأقبحه ؛ مما دعاه إلى إنكار وجود الله رب العالمين ، وكان هو وقومه مأمورين بعبادته عز وجل ، وترك العظمة التى يدعيها ويقبلها من فئته الباغية .

٢٢ - ٢٤ - (ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) :

أى : ثم تولى عن موسى ، وأمعن فى تكذيبه مجتهدًا فى مكايدته ، أو لما رأى الثعبان أدبر مرعوبا يسرع فى مشيته من هول ما رأى ، حيث رآه ضخماً قويًّا ، فاغرا فاه متجها نحوه وتبعه قومه - يعلوهم الفزع والاضطراب منهزمين(فَحَشَرَ فَنَادَى) أى : فجمع السحرة ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : « فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ »[1] وقوله تعالى : « فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى »[2] أى : فجمع ما يكاد به من السحرة وآلاتهم ، وقيل: جنوده ، ويجوز أن يراد جميع النَّاس فى مملكته ، وبعد أن جمعهم وقف فيهم خطيبا ، فنادى بنفسه أو بواسطة المنادى ، والأول هو المناسب لقوله تعالى : (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) لا رب فوقى ، وكانت لهم أصنام يعبدونها .

٢٥ - (فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى) :

أى : فأهلكه الله ونكل به تنكيل الآخرة ، وهو الإحراق ، وتنكيل الأولى ، وهو الإغراق ، وعمل الآخرة والأولى على الدارين هو الظاهر .

---

(١) الشعراء ، الآية : ٥٣

(٢) سورة طه ، الآية : ٦٠

وروى عن الحسن وابن زيد وغيرهما ، وعن ابن عباس وعكرمة والضحاك والشعبى أن الآخرة قولته : (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) والأولى قولته : « مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي » وعن مجاهد أنهما عبارتان عن أول معاصيه وآخرها ، وعلى ذلك ، فالتنكيل به والتعذيب له بسببهما ما وقع منه ، وما سيقع .

٢٦ - (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ) :

أى : إن فيما ذكر من قصة فرعون ، وما اقترف من آثام ، وما عوقب به من تنكيل وتخذيل لموعظة لمن شأنه أن يخشى ، أى : لمن له عقل يتدبر به عواقب الأمور ومصائرها ، فينظر فى حوادث الماضين ، وأحوال الحاضرين ويتعظ بها .

(ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(رَفَعَ سَمْكَهَا) السَّمْكُ : العلو والارتفاع ، يقال : سَمَكْتُ الشىء : رفعتُه فى السماء ، وبناءٌ مَسْموكٌ : عال مرتفع .

(فَسَوَّاهَا) : جعلها ملساء مستوية .

(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا) أى : أظلمه ، يقال : غطش الليل من باب ضرب ، وأغطش : صار مظلما وأظلمه الله .

(دَحَاهَا) : بسطها ومدَّها من الدحو أو الدحى يعنى البسط .

التفسير

٢٧ ، ٢٨ - (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) :

الاستفهام للتقريع والتوبيخ لأهل مكة المنكرين للبعث بناء على صعوبته فى زعمهم ، أى : أخَلْقُكُمْ بعد موتكم أشق وأصعب أم خلق السماء على عظمها ، وانطوائها على الأعاجيب والبدائع التى يحار العقل فى إدراك كنهها؟! (بَنَاهَا) : بضم أجزائها المتفرقة بعضها لبعض بعد أن خلقها بقدرته مع ربطها بما يمسكها حتى تكون بنية واحدة ، وهكذا صنع - سبحانه بالكواكب ، ووضع كلا على نسبة من الآخر مع ما يمسكه فى مداره التى كان منها عالم واحد فى النظر سمى باسم واحد وهو السماء التى تعلونا ، وعدم ذكر الفاعل فيه وفيما عطف عليه من الأفعال للتنبيه على تعينه وتفخيم شأنه - عز وجل - ما لا يخفى (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) بيان للبناء ، أى : رفع جرمها ، وأعلى قبتها وجعل مقدار ارتفاعها من الأرض، وذهابها إلى جهة العلو مديداً رفيعاً ، قال ابن كثير[1] : أى : جعلها عالية البناء بعيدة الفناء مستوية الأرجاء ، مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء (فَسَوَّاهَا) بوضع كل جرم فى موضعه حسبما اقتضته الحكمة ، وقيل : فسواها بجعلها ملساء مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض .

٢٩ - (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) :

أى : وجعل الله ليلها مظلماً ، لأنه يقال : أغطش الليل ، كما يقال : أظلم ، ونسبة الليل إلى السماء لأنه يكون بمغيب كوكبها وهو الشمس (وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) أى : وأبرز نهارها ، والضحى فى الأصل على ما يفهم من كلام الراغب : انبساط الشمس ، وامتداد النهار ، ثم سمى به الوقت المعروف ، وشاع فى ذلك وتجوز به عن النهار بقرينة المقابلة بالليل ، وعبر عن النهار بالضحى لأنه أشرف أوقاته وأطيبها وفيه من انتعاش الأرواح ما ليس فى سائرها فكان أوفق لمقام تذكير الحجة على منكرى البعث ، وإعادة الأرواح إلى أبدانها ، وإضافة الضحى إلى السماء لأنه يحدث بسبب طلوع الشمس .

---

(١) فى مختصره .

٣٠ - (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) :

أى : بعد تسوية السماء على الوجه السابق ، وإغطاش الليل ، وإخراج النهار (دَحَاهَا) أى : بسطها ومهدها لسكنى أهلها وتقلبهم فى أقطارها ، ويشير إلى أن معنى الدحْو أو الدحى البسط قول أمية بن أبى الصلت :

وبث الخلق فيها إذ دحاها فهم قطّانها حتى التنادى

وقيل : دحاها : سواها .

والأكثرون على الأول ، والظاهر أن دحوها بعد خلقها ، وقيل : معه ، أى : خلقها مدحوة ، وروى الأول عن ابن عباس ، ولعل المراد من خلقها أولا ثم دحوها ثانياً ، خلق مادتها أولا ثم تركيبها وإظهارها على هذه الصورة والشكل مدحوة مبسوطة ، كما قيل فى قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ » إلى قوله : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ »[1] أى : إن السماء خلقت مادتها أولا ثم سويت وأظهرت على صورتها اليوم .

٣١ - (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) :

أى : أخرج - سبحانه - من الأرض الماء وذلك بتفجير الينابيع والعيون ، وإجراء الأنهار ، كما أخرج منها المرعى ، ويقع على الرِّعْى وهو الكلأ ، أو المراد به كل ما يرعى المرعىّ مما يأكله الناس والأنعام ، وتجريد الجملة عن العاطف لأنها بيان وتفسير ل (دَحَاهَا) وتكملة له ، فإن السكنى لاتتأتى بمجرد البسط والتمهيد ، بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب .

٣٢ - (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) :

أى : أثبت الله الجبال فى مكانها ، وجعلها وقاية للأرض أن تميد بأهلها ، والتعبير

(١) فصلت ، من الآية رقم ١١ ومن الآية رقم ١٢ .

عنها بالرواسى فى كثير من آيات التنزيل ليس لأن الرسو المنسوب إليها من مقتضيات ذواتها ، بل هو بإرسائه – عز وجل – ولولاه لما ثبتت فى أنفسها فضلا عن إثباتها للأرض :

٣٣ – (مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) :

أى : فعل – سبحانه – ذلك كله ليتمتع به الناس والأنعام ، حيث إن فائدة البسط والتمهيد ، وإخراج الماء والمرعى واصلة إليهم ، وعائدة عليهم وعلى أنعامهم .

وحاصل المعنى : أفلا يكون خالقكم وواهبكم مابه تَحْيَوْنَ ، ورافع السماء فوقكم وباسط الأرض تحتكم قادراً على بعثكم ؟ ! وهل يليق به – سبحانه – أن يترككم سُدًى بغير حساب وجزاء بعد أن دبركم هذا التدبير ووفر لكم ذلك الخير الكثير ، وهو لايصعب عليه بعثكم – كما تزعمون – بعد أن شاهدتم الأعاجيب التى أوجدتها قدرة القادر العظيم ؟ !

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(الطَّامَّةُ الْكُبْرَى) : كالعَلَم على يوم القيامة ، وسميت بذلك لأنها تطم على كل أمر مفظع ، أي : تغلب وتفوق ما عرفوه من دواهي الدنيا ، من طمَّ الشيء ، يطُمُّه طَمًّا : غمره ، وكل ما كثر وعلا حتى غلب فقد طم .

(فَأَمَّا مَن طَغَى) : جاوز الحد فى العصيان والكفر .

(هِيَ الْمَأْوَى) : المقر والمرجع .

(وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) : أصل الهوى : مطلق الميل ، وشاع فى الميل إلى الشهوات .

(أَيَّانَ مُرْسَاهَا) أى : متى يقيمها الله ويثبتها ، والمرسى : من رسا بمعنى ثبت .

(فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) أى : ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق .

التفسير

٣٤ - (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى) :

شروع فى بيان معادهم إثر بيان معاشهم ، كقوله عز وجل : (مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) . والطامة الكبرى : هى الداهية العظمى التى تطم على ما سواها ، أى : تغلب وتفوق ما عرفوه من دواهي الدنيا ، وهى كالعَلَم ليوم القيامة ، وروى كونها اسماً من أسمائها عن ابن عباس ، وروى عنه أيضاً وعن الحسن أنها النفخة الثانية ، وقيل : إنها الساعة التى يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، وقيل : هى ساعة يساق أهل النار ، ووصفت بالكبرى لأنها أعظم الدواهى مطلقاً .

٣٥ - (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى) :

المراد : يوم يتذكر كل امرئ ما عمله من خير أو شر بأن يشاهده مدونا فى صحيفة أعماله ، وقد كان نسيه من فرط الغفلة ، أو طول الأمد ، أو لشدة ما لقى ، أو لكثرته التى تعجز الحافظ عن الضبط لقوله تعالى : « أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ »[1] .

---

(١) المجادلة ، من الآية رقم ٦

٣٦ - (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ) :

عطف على (جَآءَتْ) من قوله سبحانه : (فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَىٰ) أى : أظهرت إظهارًا بينًا فلا تخفى على أحد (لِمَن يَرَىٰ) أى : لمن شأنه الرؤية كائنا من كان ، روى أنه يكشف عنها فتتلظى فيراها كل ذى بصر .

٣٧-٣٩ - (فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) :

تفصيل لجواب (إِذَا) من قوله تعالى : (فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَىٰ) وهو مقدّر بنحو : وزع الجزاء على العمل ، أو ظهرت الأعمال ونشرت الصحف ، أو وقع مالا يدخل تحت حصر .

(فَأَمَّا مَن طَغَىٰ) أى : عتا وتمرد على الطاعة ، وجاوز الحد فى العصيان (وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أى : فضل لذائذها وشهواتها ، وأتبع نفسه هواها ، ولم يستعدّ للحياة الأخروية الأبدية بالإيمان والتقوى (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) أى : دارُ العذاب مأواه ومستقره ، يتجرع فيها نارًا يتأجج لظاها تشوى الوجوه ، وتنضج الجلود ، وكلما نضج جلده بدله الله جلدًا غيرهُ ليذوق العذاب ، قيل : نزلت الآية فى النضر وأبيه الحارث المشهورين بالغلو فى الكفر والعصيان .

٤٠ ، ٤١ - (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) :

أى : وأما من عرف بسطة السلطان الإلٰهى ، فخاف مقامه بين يدى ذى الجلال الرفيع يوم الطامة الكبرى وزجر نفسه عن هواها الباطل الذى يميل بها إلى اقتراف الآثام بحكم الجبلة البشرية ، وأهمل متاع الحياة الدنيا وزخارفها التى تعمى وتصم ، ولم يغتر بزهرتها وزينتها علماً منه بوخامة العاقبة . هذا وقد شاع الهوى فى الميل إلى الشهوة ، وسمى بذلك - على ما قال الراغب - لأنه يَهْوِى بصاحبه فى الدنيا إلى كل واهية ، وفى الآخرة إلى الهاوية ، ولذلك مدح مخالفه ، قال بعض الحكماء : إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه . وقال الفضيل : أفضل الأعمال مخالفة الهوى ، إلى غير ذلك من الأقوال الداعية إلى مجافاته

والبعد عنه (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) له لا غيرها أى : نزله الذى يتمتع فيه بالنعيم المقيم ، والسعادة الدائمة ، وعن ابن عباس أن الآيتين نزلتا فى أبى عزيز بن عمير وأخيه مصعب ابن عمير - رضى الله عنه - كان الأول كافرًا مؤثرًا الحياة الدنيا ، وكان مصعب خائفاً مقام ربه ناهياً النفس عن الهوى ، وقد وقى رسولَ الله ﷺ بنفسه يوم أُحد حين تفرق الناس عنه ، حتى نفذت السهام فى جسمه ، فلما رآه - عليه الصلاة والسلام - متشحطاً[١] فى دمه قال : عند الله أحتسبك .. إلخ القصة ، رواها الآلوسى .

٤٢ - ٤٤ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا) :

كان أهل العناد والكفر من قريش يسألون رسول الله ﷺ عن الساعة متى إرساؤها ؟ أى : إقامتها وإثباتها . يريدون بسؤالهم له ﷺ أن يبين لهم الزمان الذى يقيمها فيه ويبثها جل وعلا .

وجوز أن يكون السؤال عن المكان الذى تنتهى إليه ، أى : متى مستقرها ومنتهاها ؟ كما أن مرسى السفينة حيث تنتهى .

وكان النبى ﷺ يردد فى نفسه ما يقولون ، ويتمنى لو أمكنه الجواب عما يسألون كما هو شأن الحريص على الهداية ، الجاهد فى الإقناع ، فنهاه ربه عن تمنى مالا يرجى ، وجاء النهى على صورة الاستفهام ، حيث قال - سبحانه : (فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) بمعنى فى أى شىء أنت من مداومة تذكرها والتطلع إلى إخبارهم بوقتها ؟! فإن ذلك ليس من شأنك[٢] ، أو الاستفهام إنكار ورد لسؤال المشركين عنها ، أى : فى أى شىء أنت من أن تذكر لهم

---

(١) مضطرباً فيه . ومنه تشحط الطفل فى السلى - وزان الحصى : اضطرب فيه ، والسلى: هو ما يكون فيه الولد . المصباح المنير .

(٢) أخرج النسائى وغيره عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكثر من ذكر الساعة حتى نزلت (فيم أنت من ذكراها) فكف عنها ، وعلى هذا فالاستفهام تعجيب من كثرة ذكره صلى الله عليه وسلم .

وقتها . وتعلمهم به حتى يسألوك بيانها - فما أنت من ذلك فى علم به ، كقولك : ليس فلان فى شىء . أى : فى علم . وقيل : (فِيمَ) إنكار ورد لسؤالهم ، وما بعده (أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) استئناف لتعليل الإنكار ، وبيان لبطلان السؤال ، أى فيم هذا السؤال ، ثم ابتدئ فقال : (أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) أى : إرسالك وأنت خاتم النبيين المبعوث فى نسم الساعة[1] علامة من علاماتها ودليل يدلهم على العلم بقرب وقوعها ، فحسبهم هذه المرتبة من العلم . (إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا) أى : إلى ربك وحده ينتهى علمها ، ليس لأحد منه شىء كائنا من كان ، أو إليه تعالى يرجع العلم بكنهها ، وتفاصيل أمرها ووقت وقوعها لا إلى غيره سبحانه ، وإنما وظيفتهم أن يعلموا بقربها ومشارفتها ، وقد حصل لهم ببعثك الذى هو علامة من علاماتها ، فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك ؟ !

٤٥ - (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا) :

جاء هذا لدفع ما قد يتوهم - حسب الظاهر - من أنه ﷺ ليس له أن يذكرها بوجه من الوجوه ، فأزيح ذلك ببيان أن المنفى عنه - عليه الصلاة والسلام - ذكرها بقصد تعيين وقتها لهم حينما كانوا يسألونه عنها ، والمراد إنما شأنك أن تنذر من يخشاها فتنبهه من غفلته حتى يستعد لما يلقاه يومها من أهوال وشدائد ، فوظيفتك الامتثال بما أمرت به من بيان اقترابها لا تعيين وقتها الذى لم يفوض إليك ، فلا تشغل نفسك بما عنه يسألون .

وتخصيص الإنذار بمن يخشى - مع عموم الدعوة - لأنه المنتفع بالإنذار بها ، والتخويف منها .

٤٦ - (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) :

أى : كأنهم يوم يرون الساعة لم يلبثوا بعد الإنذار بها إلا عشية يوم واحد أو ضحاه ، والعشية : من الزوال إلى الغروب ، والضحى : من طلوع الشمس إلى الزوال ، والمراد : أنهم يستقصرون بعد قيامهم من قبورهم وذهابهم إلى المحشر - يستقصرون - مدة الحياة

---

(١) فى أوائل علامات الساعة .

الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحاه ، وقال قتادة : ذلك وقت الدنيا حين عاينوا الآخرة وما فيها .

قيل : إذا جاءت الساعة ذهبت صورة كل زمان مضى من أذهانهم سواء طال أو قصر ، فحسبوا أنهم لم يمكثوا من يوم خلقهم إلى بعثهم إلا عشية أو ضحاها ، أى : طرف من أطراف النهار لا نهارًا كاملا ؛ لما هم فيه من خوف وهلع .

وإنما صح إضافة الضحى إلى ضمير العشية لما بينهما من الملابسة لكونهما فى نهار واحد .

والآية رد لما أدمجوه فى سؤالهم ، فإنهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء لها قصدًا إلى الاستهزاء بها كما حكى عنهم « وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[1] ومثل هذه[2] قوله تعالى : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ »[3] والله أعلم .

---

(١) يس ، الآية رقم : ٤٨

(٢) الإشارة إلى قوله تعالى : (كأنهم يوم يرونها . . .) الآية .

(٣) سورة الأحقاف من الآية : ٣٥

سورة عبس

مكية وعدد آياتها اثنتان وأربعون آية

وتسمى أيضا الصاخة ، والسفرة

صلتها بما قبلها :

لما ذكر سبحانه فى السورة التى قبلها (سورة النازعات) « إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا » ذكر – عز وجل – فى هذه مَنْ ينفعه الإنذار .

أهم مقاصد السورة :

بدأت السورة بعتاب النبى ﷺ على ما كان منه من إعراضه عن ابن أم مكتوم وعبوسه فى وجهه حين جاءه راغباً فى العلم والهداية ، وكان – صلوات الله عليه – مشغولا بدعوة سادات قريش إلى الإسلام رجاء أن يسلموا ، فيسلم بإسلامهم خلق كثير . (عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ...) الآيات .

ثم ذكرت شرف القرآن وأنه محفوظ مصون من عبث العابثين ، وتطاول المفتونين (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ...) الآيات .

ثم أظهرت جحود الإنسان وإنكاره البعث والقيامة ، وأنه بذلك أهل لأن يلعن ويطرد من رحمة الله لشدة كفره بربه الذى خلقه ، وتفضل عليه بنعمه التى لاتعد ولاتحصى : (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ...) الآيات .

ثم أقامت البرهان من حال النبات على البعث وإحياء الموتى ، وتناولت دلائل القدرة فى هذا الكون حيث يسر الله للخلق سبيل العيش فى هذه الحياة بما أخرجه لهم من زروع وفواكه وأعشاب متاعاً لأنفسهم ودوابهم : (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ...) الآيات .

ثم تحدثت عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من فزع شديد يحمل المرء على أن يتنكر لأحب الناس إليه ، وأقربهم منه : (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ...) الآيات .

وخُتمت ببيان حال المؤمنين وحال الكافرين فى هذا اليوم العصيب ، وما بينهما من تفاوت : فأهل الدرجات يعلو وجوههم النور والسرور والبشر بنعيم الله ، وأهل الدركات تغشى وجوههم الظلمة والسواد من غضب ربهم ، وهم الكفرة الفجرة : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ...) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(عَبَسَ) : قطّب ، من باب ضرب ، أى : جمع بين عينيه .

(يَزَّكَّىٰ) : يتطهر بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة .

(أَوْ يَذَّكَّرُ) : يتعظ بنصائحك .

(تَصَدَّىٰ) : تتعرض له مقبلا عليه مهتماً به .

(وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَى) أى : مسرعاً يبتغى ما عندك من الهدى .

(تَلَهَّى) : تُعرض وتتشاغل ، يقال : لهى عنه كرضى ورمى ، والتهى وتَلَهَّى : تشاغل .

(إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) : أى إن آيات القرآن الكريم موعظة يجب أن يتعظ بها .

(ذَكَرَهُ) أى : حفظ القرآن الكريم فاتعظ به .

(مرْفُوعَةٍ) عالية القدر ، أو مرفوعة إلى السماء .

(سَفَرَةٍ) أى : كَتَبَةٍ ، جمع سافر بمعنى كاتب ، وهم الملائكة الكرام الكاتبون ، أوهم السفراء بين الله ورسله ، جمع سافر بمعنى سفير .

التفسير

١ – ٤ – (عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَآءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى) :

روى أن ابن أم مكتوم – واسمه عمرو بن قيس بن زائدة بن جندب بن هرون – وينتهى نسبه إلى لؤى القرشى ، وقيل : هو عبدالله بن شريح بن مالك بن أبى ربيعة الفهرى ، وقيل غير ذلك ، والأول هو المشهور كما يقول الآلوسى .

وأم مكتوم كنية أمه ، واسمها : عاتكة بنت عبد الله المخزومية ، وقد أسلم بمكة قديماً وكان أعمى ، وقد عمى بعد إبصار ، وقيل : ولد أعمى ، أتى رسولَ الله ﷺ وعنده صناديد قريش وأشرافها : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، وكان مجتمعاً بهم يدعوهم إلى الإسلام – رجاء أن يسلم بإسلامهم خلق كثير – فقال : يارسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله ﷺ بالقوم ، فَكَرِهَ – صلواتُ الله عليه وسلامه – قطْعَهُ لكلامه ، وظهرت الكراهيةُ فى وجهه ، فعبس وأعرض عنه ، فنزلت هذه الآيات عتاباً

للرسول ﷺ بعد انقضاء حديثه معهم ، وذهابه إلى أهله . وقيل : نزلت فى أثنائه فكان الرسول بعد ذلك يكرمه إذا رآه ، ويقول له : « مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى » ويبسط له رداءه ويقول : « هل لك من حاجة ؟ » واستخلفه على المدينة مرتين ، فكان يصلى بالناس ، وهو من المهاجرين الأولين . هاجر قبل النبى ﷺ ومات شهيداً بالقادسية يوم فتح المدائن فى عهد عمر – رضى الله عنه – وقيل : رجع إلى المدينة فمات بها .

والمعنى : قطب رسول الله ﷺ وجهه وأعرض عن ابن أم مكتوم بجسمه أو بترك الإصغاء إليه حينما جاءه يطلب منه أن يقرئه ، ويعلمه مما علمه الله ليزداد هداية ، فقطع بطلبه كلامه ﷺ أثناء تشاغله مع أشراف قريش ، والتعبير عنه بالأعمى للإشعار بعذره فى الإقدام على قطع كلامه ﷺ مع القوم ، وفى ذلك عتاب له ﷺ مع أن الالتفات إلى الخطاب فى قوله – سبحانه – : (وَمَا يُدْرِيكَ) إيناس بعد إيحاش ، وإقبال بعد إعراض ، أى : ولو كنت دارياً بحاله لما بدر منك من عبوس وإعراض ، ولعلمت بما هو مترقب منه من تزكٍ وتذكر ، والتعبير عنه بالأعمى فى الآية مقترناً بأل الجنسية دفع لتوهم الاختصاص بالأعمى المعين ، وإيماء إلى أن كل ضعيف من مثله يستحق الإقبال عليه والرأفة به (لَعَلَّهُ يزَّكَّى) أى : يتطهر من أوضار الإثم بما يسمع منك من نصح وإرشاد ، وعلم ومعرفة (أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى) أى : يتعظ بتذكيرك إياه ، فتنفعه ذكراك وموعظتك وإن لم تبلغ إلى درجة التزكى التام .

والترجى فى الآية للدلالة على أن رجاء تزكيه أو كونه ممن يرجى منه ذلك كافٍ فى الامتناع عن العبوس له ، والإعراض عنه ، فكيف وقد كان تطهره محققاً لأنه من السابقين إلى الإسلام ؟

وفى الآية تعريض وإشعار بأن من تعرض ﷺ لتزكيتهم وتذكيرهم من أشراف قريش لا يرجى منهم التزكى والتذكر أصلا .

٥ – ٧ – (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى) :

تفصيل لما وقع منه ﷺ أى : (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى) بماله وقوته عن سماع القرآن ، والاتعاظ به ، وعما عندك من العلوم والمعارف التى تهدى إلى خيرى الدارين (فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى)

أى : تتعرض بالإقبال عليه ، والاهتمام بإصلاحه وإرشاده مع أنه معرض عن دعوتك ، وفى ذلك مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبة هؤلاء : (وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ) أى : ليس عليك بأس فى ألا يتطهر بالإسلام ، حتى تحرص على الاهتمام بأمره ، والإعراض عمن أسلم وتطهر ، مع أن المستغنى قد رضى لنفسه دنس الكفر والعصيان ظانا فى ماله غنى عن هداية الله وطاعته ، ويقول الآلوسى : « والممنوع عنه فى الحقيقة الإعراض عمن أسلم لا الإقبال على غيره ، والاهتمام بأمره حرصاً على إسلامه » .

٨-١٠ - (وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ) :

أى : وأما الذى جاءك مسرعاً يبتغى عندك ماتتوق إليه نفسه ، ويتعلق به قلبه من أحكام الدين ، وخصال الخير (وَهُوَ يَخْشَىٰ) الله تعالى ، ويخاف الغواية ، وما دفعه إليك إلا حبه لأن يتطهر من الجهل ، وخوف الوقوع فى ظلمات الضلال ، وقيل : يخشى أذى الكفار فى إتيانه إليك . وقيل : يخشى العثار والكبوة إذ لم يكن معه قائد (فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ) أى : تتشاغل - عن إجابته إلى طلبه - بصناديد قريش ، بمعنى : لا ينبغى أن تتصدى للمستغنى عما عندك من الحكمة ، والموعظة الحسنة ، وتتلهى به عن الفقير الطالب للخير .

وفى تقديم ضميره ﷺ وهو « أنت » على الفعلين : (تَصَدَّىٰ) و (تَلَهَّىٰ) تنبيه على أن مناط العتاب خصوصيته - عليه الصلاة والسلام - وتقديم (لَهُ) و (عَنْهُ) على الفعلين أيضاً للعناية والاهتمام بمضمونهما : لأنهما منشآ العتاب له ﷺ روى أنه - صلوات الله عليه - : ما عبس بعد ذلك فى وجه فقير قط ، ولا تصدى لغنى .

وبعد أن فصل - سبحانه - فى الآيات السابقة حاله ﷺ مع المستهدى والمستغنى أتبعهما بقوله جل شأنه :

١١ ، ١٢ - (كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ) :

المعنى : كلمة « كَلَّا » للردع والزجر ، أتى بها للمبالغة فى إرشاده ﷺ إلى عدم العودة . إلى ما عوتب عليه من الاهتمام بمن استغنى عما دعوته إليه من الإيمان والطاعة ،

وما يوجبها من القرآن الكريم ، والإعراض عمن جاءك مستهدياً ومسترشدًا ، أى : لا تعد إلى مثل ما وقع منك .

(إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) أى : القرآن الكريم تذكرة وموعظة يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها ، وأنث الضمير العائد عليه لتأنيث الخبر ، وقيل : الضمير المؤنث يراد به الهداية المودعة فى سائر الكتب السماوية وأجلُّها القرآن جعلها الله تذكرة وإرشادًا إلى الطريق المستقيم .

وهذه الجملة المؤكدة تعليل للردع (بكَلَّا) عما ذكر ، ببيان علو رتبة القرآن العظيم الذى استغنى عنه من تصدى ﷺ له ، وتحقيق أن شأنه أن يكون موعظة حقيقة بالاتعاظ ، فمن رغب فيها اتعظ بها كما نطق به قوله تعالى : (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ) أى : حفظه واتعظ به ، ومن رغب عن حفظه والاتعاظ به – كما فعل المستغنى – فلا حاجة لك إلى الاهتمام بأمره ، وذكَّر الضمير لكونه عائدًا على القرآن أو على التذكرة لأنها بمعنى التذكير والوعظ ، والجملة جىء بها للترغيب فى القرآن ، والحث على حفظه والاتعاظ به .

١٣ – ١٦ – (فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ) :

أى : إن آيات القرآن مثبتة فى صحف منتسخة من اللوح المحفوظ مكرمة عند الله – جل وعلا – وقيل : مثبتة فى صحف الكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء – عليهم السلام – كقوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ » هذه الصحف (مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ) أى : عالية القدر شريفة ، وقيل : مرفوعة فى السماء السابعة منزهة عن مساس أيدى الشياطين ، أو من كل دنس ، كما روى عن الحسن ، أو عن الشُّبه والنقص (بِأَيْدِى سَفَرَةٍ) وهم الملائكة – عليهم السلام – ومعنى كونها بأيديهم أن الله – سبحانه – جعلهم سفراء بينه وبين رسله يحملون إليهم الكتب المنزلة عليهم ، جمع سافر بمعنى سفير ، أو هى بأيدى الأنبياء – عليهم السلام – لأنها تنزل عليهم بالوحى ، وهم يبلغونها للناس . فكل من الملائكة والأنبياء يصح إطلاق السفير عليه ، كما يصح إطلاق الرسول على كل منهما ، أو السفرة : الكتبة من الملائكة ، قال مجاهد وجماعة : فإنهم ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ ، جمع سافر ، أى : كاتب . (كِرَامٍ بَرَرَةٍ) أى : مكرمين معظَّمين عند الله – تعالى – من الكرامة بمعنى التوقير ، أو أنهم

متعطفون على المؤمنين يستغفرون لهم ويرشدونهم إلى الخير والكرامة ، وهم كذلك متصفون بصنع المكارم ، أتقياء أو مطيعون لله تعالى ، من قولهم : فلان يبر خالقه ، أى : يطيعه .

(قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾)

المفـردات :

(قُتِلَ الْإِنسَانُ) أى : لعن وطرد .

(مَآ أَكْفَرَهُ) : ما أشد كفره ، وهو تعجيب من إفراطه فى الكفران ، وبيان لاستحقاقه الدعاء عليه .

(فَقَدَّرَهُ) أى : فهيأه لما يصلح له ويليق به ، أو فقدره أطوارًا من حال إلى حال .

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) أى : سهل له طريق الخير ، وطريق الشر ، وأقدره على اختيار أيهما .

(فَأَقْبَرَهُ) أى : جعله ذا قبر يُوَارَى فيه ، يقال : قَبَرَ الميتَ يَقْبُرُهُ ، وَيَقْبِرُهُ من بابى : نصر وضرب : إذا دفنه بيده ، ويقال : أقبره : إذا أمر بدفنه أو مكّن منه .

(أَنشَرَهُ) أحياه بعد موته للحساب والجزاء .

التفسير

١٧ - (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ) :

دعاء عليه بـأشنع دعواتهم على ما هو المعروف فى لسانهم ، وهو كناية عن قبح حاله وأنه قد بلغ منه مبلغاً لا يستحق معه أن يبقى حيا . (مَآ أَكْفَرَهُ) : تعجيب من إفراطه فى الكفر

والتكذيب بالمعاد ، وبيان لاستحقاقه الدعاء عليه ، أى : ما أشد كفره الذى حمله على نسيانه لما يتقلب فيه من النعم ، وذهوله عن مسديها ومانحها حتى إذا ذكر به ، فهو يعرض عن الذكرى . والمراد بالإنسان إما أن يكون من استغنى عن القرآن العظيم ، فكفر بربه الذى نُعت بالصفات الجليلة التى تستوجب الإقبال عليه والإيمان به ، وإما أن يكون للجنس باعتبار انتظامه واشتماله على من استغنى وعلى أمثاله من أقرانه ، ويرجح هذا أن الآية نزلت على ما أخرج ابن المنذر عن عكرمة : فى عتبة بن أبى لهب : غاضب أباه فأسلم ثم استصلحه أبوه ، وأعطاه مالاً ، وجهزه إلى الشام ، فبعث إلى رسول الله ﷺ أنه كافر برب النجم إذا هوى ، فدعا عليه رسول الله ﷺ ... إلى آخر القصة ، وقد تحقق فيه الدعاء .

ويقول الآلوسى : ثم إنَّ هذا كلام فى غاية الإيجاز إشارة إلى الآية ، وقال جار الله : لا ترى أسلوباً أغلظ منه ، ولا أدل على سخطه ، ولا أبعد شوطاً فى المذلة مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع للأئمة على قصر متنه ، وقال الإمام : إن الجملة الأولى (قُتِلَ الْإِنسَانُ) تدل على استحقاقهم أعظم أنواع العقاب عرفاً ، والثانية (مَآ أَكْفَرَهُ) تدل على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات شرعاً .

١٨ - ٢٠ - (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ • مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ • ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) :

شروع فى بيان إفراطه فى الكفران ، ببيان ما أفاض الله عليه وتفصيله من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره من فنون النعم الموجبة لأن تقابل بالشكر والطاعة ، بدل ما تمسك به هذا الإنسان من الإمعان فى الكفر والتكذيب ، وفى الاستفهام التقريرى عن مبدأ خلقه ثم بيانه بقوله تعالى : (مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ) تحقير له وتوبيخ ، أى : من أى شىء حقير مهين خلق الله ذلك الكافر الجحود الذى يتكبر ويتعظم على ربه بترك الإقرار بتوحيده ؟ خلقه من نطفة قذرة (فَقَدَّرَهُ) أى : فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال ، أو فقدره أطواراً من حال إلى حال إلى أن تم خلقه واكتمل تكوينه بأعضاء متناسبة تلائم حاجاته مدة بقائه ، وأودع فيه من القوى ما يمكنه من استعمال تلك الأعضاء وتصريفها فيما خلقت له ، وجعل كل ذلك بمقدار محدود على ما يقتضيه كمال نوعه . (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) أى : ثم سهل له

مخرجه من البطن بأن فتح له رحم أمه ، وألهمه أن ينتكس فتكون رأسه إلى أسفل ، وأحاطه بكل أنواع الرعاية ، أو ثم سهل له طريق الخير والشر ، ومكنه من السلوك فيهما بأن أقدره – عز وجل – على كلٍّ ومكَّنَهُ منه . والإقدارُ على ما يريده الإنسان نعمة ظاهرة بقطع النظر عن خيريته وشريته فى ذاته وبهذا الاعتبار كان تيسيرالسبيل إليهما نعمة من نعمه – جل وعلا – وهذا مثل قوله تعالى : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا »[1] .

٢١ – ٢٣ – (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ * كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ) :

أى : جعله ذا قبر يوارى فيه بعد موته تكرمة له ، حتى لايبقى مطروحاً علىوجه الأرض ، فيصير جيفة يستقذرها كل من يراها ، ويتأذى بما ينبعث منها من روائح كريهة ، ويكون نهباً للسباع والطير وغيرهما .

والمراد من جعله ذا قبر أنه – عز وجل – أمر بدفنه ومكَّن منه ، كما ينطق به معنى (فَأَقْبَرَهُ) .

وفى الآية إشارة إلى مشروعية دفن الميت من الأناسى بلا خلاف ، أما حرقه – كما يفعل بعض الوثنيين – فمناف للتكرمة ، ومجافٍ للسنة الإسلامية ، على ما فيه من البشاعة والشناعة ، وأما دفن غير الإنسان من الحيوانات فقيل : هو مباح ، وقد يطلب على سبيل الوجوب لأمر مشروع يقتضيه ، وذلك لدفع الأذى البالغ الذى يترتب على ترك جيفها مطروحة ، فتفسد الجو بروائحها الكريهة ، وتتكاثر عليها الجراثيم الضارة التى تفتك بصحة الإنسان ، وتودى بحياته .

والإتيان بالفاء فى قوله تعالى : (فَأَقْبَرَهُ) للإشارة بتعجيل دفن الميت عقب موته فهى فى موضعها ، وَعُدَّتِ الإماتة من النعم لأنها وصلة فى الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم .

(ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ) :

أى : إن الله تعالى ينشره ويبعثه بعد موته وإقباره فى الوقت الذى تتعلق به مشيئته ، وفى تعلق الإنشار بالمشيئة إيذان بأن وقته غير معين أصلا ، بل هو راجع للمشيئة ، بخلاف

(١) سورة الإنسان الآية ٣

الإماتة فإن وقتها فيه نوع تعيين فى الجملة على ما هو المعهود فى متوسط الأعمار الطبيعية.
(كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ) :

(كَلَّا) ردع للإنسان الكافر عما هو عليه من الطغيانُ البالغ ، أى : ليس الأمر كما يقول من أنه أدى حق الله عليه فى نفسه وماله (لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ) بيان بسبب الردع ، أى : أنه لم يؤد شيئاً مما أمره به ربه من ترك الكبر المفرط ، ومن ترك التأمل فى الآيات ، والإيمان بالله مع ما يتقلب فيه من النعم العظيمة .

روى عن مجاهد وقتادة أن المراد أنه لم يقض جميع ما أمره الله به من أول زمان تكليفه إلى زمان إماتته وإقباره .

(فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا) : أنزلناه من السماء إنزالا عجيباً كأنه مراق من إناء ، يقال : صب الماء يصبه ، أى : أراقه ، من باب قتل .

(ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا) أى : ثم شققناها بالنبات شقًّا بديعاً ملائماً له فى حجمه .

(قَضْباً) أى : علفاً رطباً ، وسمى قضباً لأنه يقضب بعد نموه ، أى : يقطع مرة بعد أخرى كالبرسيم مثلا .

(غُلْباً) : كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان ، جمع غلباء .

(وَأَبًّا) الأَبُّ : الكلأ والمرعى ، وهو ما تأكله البهائم ، من أَبَّهُ : إذا أَمَّه وقصده ، أو مِنْ أبَّ لكذا : تهيأ له .

التفسير

٢٤ ، ٢٥ - (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) :

بعد أن ذكر - سبحانه - الأمور المتعلقة بخلق الإنسان امتنَّ عليه بذكر الأمور المتعلقة ببقائه فى الدنيا ليعتبر ويقابل النعمة بالشكر ، فقال سبحانه : (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ) بمعنى : إذا كان حاله وهو أنه لايزال إلى الآن سادرًا فى غيه ، لم يؤد شيئاً مما أمر به مع أن النعم السابقة من أقوى الدوافع إلى الامتثال والاستجابة ، فحتم عليه أن ينظر نظر تفكير وإمعان إلى طعامه الذى عليه يدور أمر بقائه كيف دبرناه وهيأنا له أسباب وجوده وعددنا أنواعه ليكون متاعاً له ولأنعامه ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) أى : أنزلناه من السماء إنزالا عجيباً ، ينبىء بقدرة القادر العظيم ، وظاهر الصب يقتضى تخصيص الماء بالغيث وهو المروى عن ابن عباس . وجوز بعضهم الأعم كماء العيون ونحوه وتأكيد الجملة للاهتمام بمضمونها ، والظاهر أن المراد من الطعام : المطعوم بجميع أنواعه ، واقتصر عليه ، ولم يذكر المشروب ، لأن آثار القدرة فيه أكثر من آثارها فى المشروب .

٢٦ - (ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا) :

أى : شققناها شقاً بديعاً لائقاً بما يشقها من النبات : صغرًا وكبرًا ، وشكلا وهيئة ، وشق الأرض بالنبات بعد نزول المطر يكون على التراخى المعهود كما يتضح ذلك من التعبير بـ (ثم) .

٢٧ - ٣٢ - (فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) :

هذا استمرار فى تعداد النعم التى أفاضها الله - سبحانه - على وجه بديع خارج عن العادات امتناناً على هذا الكافر الذى بالغ فى الإعراض والجحود ، وأهمل ما تستدعيه تلك

النعم من الامتثال والإقبال على خالقه الذى أنزل الغيث من السماء ، فصبه صَبًّا على الأرض التى انشقت بالنبات المتنوع ، فنما وترعرع ، فكان منه كما يقول تعالى : (فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا) يقتات به الناس ويدخرونه ، من نحو القمح والشعير (وَعِنَباً وَقَضْباً) أى : عنبا يتفكه به ، وقضبا ، أى : علفا رطبا للدواب ، وقيده بذلك الخليل وقال : إذا جف فهو التبن ، وسمى قضبا لأنه يقضب ، ويقطع مرة بعد أخرى كالبرسيم ونحوه . وقيل : هو ما يقضب ليأكله ابن آدم غضا كالبقول وبعض الخضروات . (وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً) الزيتون معروف ويؤكل بكل أنواعه ، ويؤتدم بعصيره ، ويستشفى به ، والنخل تؤكل ثمرته بلحاً كانت أو بسرا ، أو رطباً أو تمرًا .

(وَحَدَائِقَ غُلْباً) وهى الأشجار المثمرة التى أحيطت بسور يجمع بين أجزائها . فإن لم تحط به ، فليست بحدائق بل هى بساتين ، ومنه قيل : أحدقوا به ، أى : أحاطوا ووصف الحدائق بقوله تعالى : (غُلْباً) لتكاثفها ، وكثرة أشجارها ، وتشابك أغصانها ، أو لأنها ذات أشجار ضخمة عظيمة ، وكونها كذلك للإشعار بأن النعمة فى جملتها لا فى ثمرتها فحسب ، فمن أخشابها ما ينتفع به فى الإحراق والصناعة ، ومن أوراقها ما تأكله الحيوانات حفاظاً على حياتها ، وهذا أكمل فى الانتفاع بها . (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) ذكرت الفاكهة مع أنها تدخل فى الامتنان بالحدائق ؛ للاعتناء بشأن ما يتفكه به من ثمارها المتنوعة ، من كل ما حسن مذاقه ، وطاب ريحه ، وكبر حجمه ، ولا شك أن ذلك أَدْخَلُ فى الامتنان .

والأَبُّ : كما نقل عن ابن عباس وجماعة . أنه الكلأ والمرعى ، وسمى بذلك لأنه يُؤَمُّ ويُقصد ، والأَبّ : القصد ، وقيل : هو ما أنبتته الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الإنسان ، وقال الضحاك : كل شىء أنبتته الأرض سوى الفاكهة .

روى أن أبا بكر الصديق — رضى الله عنه — سئل عن الأَبِّ فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به ؟ ! وفى صحيح البخارى فى رواية

عن أنس أن عمر – رضى الله عنه – قرأ هذه الآية وقال : فما الأبُّ ؟ ثم قال : ما أمرنا بهذا ، أو ما كلفنا بهذا ، أى : بتتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ، بمعنى : لاتنشاغلوا عن أعمالكم بطلب معنى الأبِّ والبحث عنه ، ومعرفة النبات الخاص به إلى أن يبين لكم فى غير هذا الوقت ، واكتفوا بالمعرفة الجملية[1] ، ثم وصى الناس أن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن ، ليكون أكبر همهم ما هو أهم : من الشكر له – عز وجل – على نعمه العظيمة (مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) : فعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم ، فاشكروه على آلائه ، وجزيل عطائه فقد ضمن لكم ولأنعامكم الحياة والمتاع .

(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(الصَّاخَّةُ) : هى الداهية العظيمة التى يصخ لها الخلائق ، من صخ لحديثه : إذا أصاخ واستمع لشدة صوت ذى النطق كما يقول الراغب .

(وَصَاحِبَتِهِ) أى : وزوجته .

(شَأْنٌ يُغْنِيهِ) أى : له شأن يكفيه فى الاهتمام به ، ويشغله عن غيره .

التفسير

٣٣ – (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ) :

شروع فى بيان معادهم إثر بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم ، أى : إذا جاء وقت الصاخة ،

---

(١) ليس فى ذلك نهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ، ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على ذلك .

وهى صيحة القيامة سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع ، أى : تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تصمها ، وقال الخليل : هى صيحة تصخ الآذان صخا لشدة وقعها ، وأيًّا ما كان فهى اسم من أسماء يوم القيامة كما يقول ابن عباس : الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده ، وقد وصفت بها النفخة الثانية لأن النَّاس يصيخون لها ، أى : يستمعون ، تدفعهم شدتها إلى أن يسرعوا قياماً ينظرون ، وجواب (إذا) مقدر ، والمعنى : فإذا صخت الصاخة شغل كل إنسان بنفسه .

٣٤ – ٣٦ – (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ) :

يوم : تفسير للصاخة ، أى : فى هذا اليوم الذى ذهبت فيه هذه الحياة الدنيا ، وجاءت الصاخة يكون شأن ذلك الإنسان مع المذكورين فى الآيات ، أنه يعرض عنهم حينما يراهم ، ويفر منهم ولا يسأل عنهم كما فى الدنيا ؛ لأن الهول عظيم والخطب جسيم . قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : ياهذه أى بعل كنتُ لك ؟ فتقول : نِعْمَ البعل كنتَ ، وتثنى بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإنى أطلب إليكِ اليوم حسنة واحدة تهبينها لى لعلى أنجو مما تريْنَ . فتقول له : ما أيسر ما طلبت ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئاً ؛ فإنى أتخوف مثل الذى تخاف . وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول : يا بنى أى والد كنتُ لك ؟ فيثنى بخير ، فيقول له : يا بنى إنى احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلى أنجو مما ترى ، فيقول ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً . يقول الله تعالى . (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ ...) الآيات .

وفى الحديث الصحيح : « إذا طلب إلى كلٍّ من أولى العزم أن يشفع عند الله فى الخلائق يقول : نفسى نفسى ، لا أسألك اليوم إلا نفسى ... إلى آخر الحديث » قال فى التسهيل : ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبابه ورتبهم على مراتبهم فى الحنو والشفقة ، فبدأ بالأقل وختم بالأكبر ، وذلك بذكر الأخ والأبوين لأنهما أقرب منه ثم بالصاحبة والبنين لأنهما أحب .

قيل : أول من يفر من أخيه هابيل ، ومن أبويه إبراهيم ، ومن صاحبته نوح ولوط ،

ومن ابنه نوح – عليه السلام – وفرار هؤلاء ليس من قبيل هذا الفرار؛ لأنه وقع بغضا لهم وحذرا من لقائهم ، كما يروى عن ابن عباس .

٣٧ – (لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) :

استئناف لبيان سبب الفرار . أى : لكل ممن ذكروا فى الآيات السابقة شغل شاغل ، وخطب هائل يكفيه فى الاهتمام به ، ويصرفه عن غيره ، أخرج الطبرانى وابن مردويه والبيهقى والحاكم وصحححه عن أم المؤمنين سودة بنت زمعة قالت : قال النبى ﷺ : « يحشر النّاس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً [1] ، قد ألجمهم العرق ، وبلغ تخوم الآذان ، قلت : يا رسول الله واسوأتاه ! ! ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : شُغل النّاس عن ذلك ، وتلا : (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ ...) الآية وفى حديث آخر : « ما أشغل النّاس عن النظر » وهناك أحاديث أخرى تدور حول هذا المعنى فمن أرادها فليرجع إلى تفسير ابن كثير وغيره .

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(مُّسْفِرَةٌ) : مشرقة مضيئة .

(غَبَرَةٌ) : عليها غبار ودخان .

(تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) تغشاها ظلمة وسواد .

---

(١) جمع (أغرل) وهو غير المختون .

التفسير

٣٨ ، ٣٩ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ) :

الآيات الخاتمة للسورة تبين حال الناس يوم يقفون بين يدى رب الأرباب ، وأنهم ينقسمون إلى السعداء والأشقياء ، وقد بدأت بالقسم الأول الذى آثر الحياة الباقية فعمل لها وأقبل عليها ، ورغب فيها رغبة الحريص عليها . فقال سبحانه : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ) أى : مضيئة متهللة من البهجة والسرور ، وعن ابن عباس : إن ذلك من قيام الليل ، وعن الضحاك : من آثار الوضوء فيختص ذلك بهذه الأمة نظرًا لأن الوضوء من خواصها بالنسبة إلى الأمم السابقة ، وقيل : من طول ما اغبرت فى سبيل الله (ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ) بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة جزاء إيمانها ، وما قدمت من صالح أعمال ، وشكر آلاء ونعم .

٤٠ - ٤٢ - (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) :

بيان لحال القسم الثانى الذى أهمل عقله ، وشغل نفسه بالأهواء والأباطيل فرضى جَهْلَه ، واتبع حُمْقَه ، واختار الفانية ، وأفرغ جهده فى الإقبال عليها ، والتمسك بها ، حتى كان شأنه ما يفصح عنه قوله تعالى : (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ) أى : يعلوها غبار ودخان ويكون ذلك على الحقيقة ، أو يراد المجاز ، أى : مذلة وهوان . (تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) أى : يعلوها سواد وظلمة على الحقيقة ، أو غم وحزن على المجاز ، وقيل : لا ترى أقبح من اجتماع الغبار والسواد فى الوجه ، بمعنى أن على وجوههم غبارًا وكدورة فوق غبار وكدورة : إظهارا لشدة القبح (أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) أى : أولئك المتصفون بالكدورة والسواد الجامعون بين الكفر والفجور .

سورة التكوير

مكية وآياتها تسع وعشرون آية

ويقال لها سورة كورت ، او سورة إذا الشمس كورت

صلتها بما قبلها :

أنها شرحت حال يوم القيامة ، وبينت ما يقع فيها من أحداث عند قيام الساعة وبعد قيامها ، وذلك ما تضمنته آخر السورة التى تقدمت عليها (سورة عبس) .

اهم مقاصدها :

بدأت بتصوير الأحداث الهائلة التى تقع يوم القيامة ، وما يصاحبها من انقلاب كونى ، يشمل الشمس والنجوم ، والجبال والبحار ، والأرض والسماء ، والإنسان والحيوان ، والجنة والنار حتى لا يبقى شىء إلا وقد تغير وتبدل إبرازًا لمظاهر القدرة العظيمة (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ...) الآيات .

ثم أكدت بالقسم شأن القرآن الكريم ، ونفت عنه الفرية ، وبينت أنه منزل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين جبريل – عليه السلام – الذى وصف بأنه ذو قوة عند ذى العرش مكين (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ...) الآيات .

ثم نزهت الرسول ﷺ عما يقوله المتقولون عليه كذباً وبهتاناً ، وأكدت بالقسم أنه ﷺ رأى جبريل – عليه السلام – فى صورته الملكية بالأفق الأعلى الواضح ، ونفت عنه أن يكون مقصرًا أو متهماً فى تبليغ رسالة ربه التى أداها بصدق وأمانة (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ) .

ثم كذبت مزاعم المشركين حول القرآن العظيم ، وأبطلتها ببيان أنه موعظة من الله لعباده ، ينتفع بها أهل الاستقامة ، وهم بصنيعهم كمن ترك الطريق المستقيم الموصل للغاية ، وسلك طريق المخاوف والمهالك (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ...) الآيات .

ثم ختمت السورة برد أمر الناس جميعاً لمشيئة الله (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّا أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(كُوِّرَتْ) أى : لُفَّتْ ، ويلزم ذلك ذهاب ضوئها المنتشر فى الآفاق ، ومنه تكوير العمامة أى : لفها على الرأس .

(انكَدَرَتْ) : سقطت وتناثرت .

(وَإِذَا الْعِشَارُ) : جمع عُشَرَاء ، كنفاس جمع نُفساء ، وهى الناقة التى مضى على حملها عشرة أشهر ، وهذا اسمها إلى أن تضع لتمام السنة .

(عُطِّلَتْ) أى : أهملت لاشتغالهم بأنفسهم وكانت موضع عنايتهم واهتمامهم لأنها أنفس أموالهم .

(حُشِرَتْ) أى : جمعت من كل جانب ، وقال ابن عباس : حشرها : موتها .

(سُجِّرَتْ) : ملئت نارًا ، من سجر التنور : إذا ملأه بالحطب .

(الْمَوْءُودَةُ) : التى دفنت حية .

(كُشِطَتْ) : نزعت وقلعت ، يقال : كَشَطْت جلد الشاة : إذا نزعته وفصلته عنها .

(سُعِّرَتْ) : أوقدت إيقادًا شديدًا .

(أُزْلِفَتْ) : قربت وأدنيت من المتقين .

التفسير

١ ـ (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) :

هذه الآية والآيات التالية لها تصوير لأهوال القيامة ومبادئها ، وما يصاحب ذلك من شدائد وآلام ، وما يعترى الكون والوجود من مظاهر التبديل التى صورت تصويرًا رائعاً ، وبينت بياناً واضحاً .

والمعنى : أن الشمس قد أزيل نورها فأظلمت حينما كورت بلفها ، على أن المراد بذلك إما رفعها وإزالتها من مقرها ، فإن الثوب إذا أريد رفعه يلف ويطوى ، ونحوه قوله تعالى : « يَوْمَ نَطْوِى السَّمَآءَ » وإما بلف ضوئها بعد انتشاره وانبساطه فى الآفاق ، وقال مجاهد : كورت ، أى : اضمحلت وذهبت ، وذلك يحصل عند خراب العالم الذى يعيش فيه الحى حياته الدنيا ، فإن عالمه الآخر الذى ينقلب إليه لايبقى فيه شىء من هذه الأجرام .

٢ ـ (وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ) :

أى : انتشرت وتساقطت ، كقوله تعالى : « وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ »[1] فذهب نورها ، وانمحى لألاؤها .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ لا يبقى يومئذ نجم إلا سقط فى الأرض ، أو تغيرت وانطمس ضوؤها لما غشيها من كدرة وسواد .

---

(١) الانفطار ، الآية رقم ٢

٣ ـ (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) :

أى : اقتلعت وأبعدت عن أماكنها بالرجفة الأُولى التى تنشق لها الأرض ، وتضمحل ، وتتزلزل زلزالا شديدًا ، فتتقطع أوصالها ، وتنفصل منها جبالها ، وقيل : تسير مقذوفة فى الفضاء ، وقد تمر على الرءوس مع السحاب .

٤ ـ (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ) :

أى : أهملت وسيبت ، وتركها أهلها بلا راع ، تسير حيث تشاء مع أنها أنفس أموالهم وأكرمها ، وذلك لاشتغالهم بأنفسهم لشدة الكرب ، وعظم الهول ، وقيل : العشار من من السحائب فإن العرب تشبهها بالحوامل ، ومنه قوله تعالى : « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا »[1] وتعطيلها عدم إمطارها ، وقال القرطبى : الكلام على التمثيل ؛ إذ لا عشار حينئذ . والمعنى : أنه لو كانت عشار لعطلها أهلها واشتغلوا بأنفسهم .

٥ ـ (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) :

أى : جمعت من كل ناحية كما قال تعالى : « وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ »[2] قال ابن عباس : حشرها : موتها وهلاكها . وقال قتادة : يحشر كل شىء حتى الذباب للقصاص ، فإذا قضى بينها ردت ترابا . وقال حجة الإسلام الغزالى وجماعة : إنه لا يحشر غير الثقلين لعدم كونه مكلفاً ولا أهلا للكرامة بوجه ، وليس فى هذا الباب نص من كتاب أو سنة معول عليه يدل على حشر غيرهما ، ويقول الآلوسى : وإلى هذا القول أميل ، ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول وهو حشر الجميع لأن لهم ما يصلح مستندًا فى الجملة ، ويشير بذلك إلى الحديث الذى أخرجه مسلم والترمذى عن أبى هريرة فى هذه الآية قال : قال رسول الله ﷺ : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة

(١) الذاريات ، الآية : ٢
(٢) الأنعام ، الآية : ٣٨

القرناء » وزاد أحمد بن حنبل : « حتى الذرة من الذرة » ويقول ، حجة الإسلام وجماعة : الحديث المروى عن مسلم والترمذى وإن كان صحيحاً إلا أنه لم يخرج مخرج التفسير للآية ، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام .

٦ - ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ :

أى : ملئت بتفجير بعضها إلى بعض حتى يكون ملحها وعذبها بحرًا واحدًا ، من سَجَرَ التنور : إذا ملأهُ بالحطب ليوقده ، وقال ابن عباس وغير واحد : يرسل عليها الدَّبُور فتسعرها وتصير نارًا تتأجج لتعذيب أهل النار ، وقيل : أحميت بالنار حتى تبخر ماؤُها وظهرت النَّار فى مكانها ، وقريب من هذا قول الضحاك وقتادة : غاص ماؤها فذهب ولم يبق منه قطر ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون المعنى مُلكت وقيد اضطرابها حتى لايخرج عن الأرض من الهول ، وأنسب المعانى لمقام الوعيد قول ابن عباس وغير واحد .

٧ - ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ :

أى : قرنت كل نفس بشكلها : الصالح منها مع الصالح فى الجنة ، والطالح مع الطالح فى النَّار ، أخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن النعمان بن بشير عن عمر - رضى الله عنه - أنه سئل عن ذلك فقال : يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة ، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار ، فذلك تزويج الأنفس .

وقيل : تقرن نفوس المؤمنين بالحور العين ، ونفوس الكافرين بالشياطين ، وقيل : تقرن كل نفس بكتابها . وقيل : الأزواج بأزواجهم .

وقيل : بعملها . وأيًا ما كان فالنفس بمعنى الذات ، والتزويج بمعنى الاقتران ، ويحصل الاقتران عند البعث .

٨ ، ٩ - ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ :

كان من عادات بعض العرب الفاشية فيهم . أنه إذا ولد لأحدهم بنت وأراد أن يستحييها ولا يقتلها أمسكها مهانة لها واستخفافا بها إلى أن تقدر على الرعى ، ثم ألبسها جبة من

صوف أو شعر وأرسلها فى البادية ترعى له إبله وغنمه ، وإن أراد أن يقتلها تركها حتى إذا كانت سداسية[١] فيقول لأمها : طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها[٢] ، وقد حفر لها بئراً فى الصحراء ، فيبلغ بها البئر فيقول : انظرى فيها ، فيدفعها من خلفها ، ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض ، وقيل : كانت الحامل إذا أوشكت على الوضع حفرت حفرة ، فتمخض على رأس الحفرة ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها فيها ، وإن ولدت ابناً حسبته .

وكان الدافع لهم على تلك الجريمة الشنعاء ، التى اقترفوا إثمها ، وباءوا بقبحها ، الدافع لهم خشية الإملاق ، وخوف الاسترقاق لهن ، وإنها لقسوة شديدة وغلظة بالغة ، زينت لهم دفن فلذات أكبادهم أحياء ، وهن ينظرن إليهم نظرة ضراعة واستعطاف ، ولكن هيهات للقلوب المتحجرة أن تلين ، واستمروا مستمسكين بفعلتهم المنكرة إلى أن جاء الإسلام فاقتلع عن قلوبهم بذور الشر والطغيان وملأها رأفة ورحمة . فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها .

(سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ) :

توجيه السؤال لها دون وائدها مع أنه مقترف الذنب . لتسليتها ، وإظهار كمال الغيظ منه والسخط عليه بإسقاطه عن درجة الخطاب مبالغة فى تبكيته ، فإن المجنى عليه إذا سئل بحضرة الجانى عن الذنب الذى من أجله استحق هذه الجناية والعقاب الذى نزل به ، كان ذلك باعثاً للجانى على التفكير فى حال نفسه ، وحال المجنى عليه ، فيرى براءة ساحة المجنى عليه وأنه هو المستحق للعقاب ، وهذا نوع من الاستدراج وقع عن طريق التعويض .

وسؤال الموءودة عن سبب القتل هو سؤال تلطف ، لتقول : قتلت بلا ذنب ، أو لتدل على قاتلها ، أو لتوبيخ ذلك القاتل بصرف الخطاب عنه تهديداً له ، فإذا سئل المظلوم فما بال الظالم ؟ !

---

(١) سداسية ، أى : بلغت ست سنوات .

(٢) أقارب الزوج أو الزوجة .

قال ابن عباس : أطفال المشركين فى الجنة فمن زعم أنهم فى النار فقد كذب ، يقول الله - عز وجل - : (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ) - اهـ .

١٠ - (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) :

أى : وإذا فتحت صحف الأعمال ؛ لأن صحيفة كل إنسان تطوى عند موته ثم تنشر عند الحساب ، فيعطى صحيفته بيمينه أو شماله وفق عمله الذى سجلته عليه الملائكة ، وقيل : نشرت ، أى : فرقت بين أصحابها ، وعن مرثد بن وداعة : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش فتقع صحيفة المؤمن فى يده فى جنة عالية ، وتقع صحيفة الكافر فى يده فى سموم وحميم ، أى : مكتوب فيها ذلك ، وهى صحف غير صحف الأعمال . كذا قيل .

١١ - (وَإِذَا السَّمَآءُ كُشِطَتْ) :

أى : قطعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، والغطاء عن الشىء المستور به .

١٢ - (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ) :

أى : أوقدت إيقاداً شديداً للكفار ، قال قتادة : سعرها غضب الله ، وخطايا بنى آدم .

١٣ - (وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) :

أى : أدنيت وقربت من المتقين ، كقوله تعالى : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ »[1] .

١٤ - (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ) :

أى : تبين لكل نفس جميع ما عملته من خير وشر وذلك بإحضار تلك الأعمال مدونة فى الصحف ويراد من إحضارها : اطلاع صاحبها عليها مفصلة فى صحفها بحيث لايشذ

(١) سورة ق ، الآية رقم ٣١

منها شيء ، كما ينبىء عنه قوله - تعالى - حكاية عنهم : « مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا »[١] .

وقد يراد من إحضارها أنها تشاهدها على ما هى عليه فى الحقيقة . فإن كانت صالحة على صورة أحسن مما كانت تدركها فى الدنيا ؛ لأن الطاعات لا تخلو فيها من نوع مشقة ، وإن كانت سيئة تشاهدها على خلاف ما كانت عندها فى الدنيا فإنها كانت مزينة لها موافقة لهواها .

والآية جواب (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) وما عطف عليها ، على أن المراد بها زمان ممتد يسع ما فى سياقها وسياق ما عطف عليها من الخصال مبدؤه النفخة الأولى ، ومنتهاه فصل الخطاب بين الخلائق ، بمعنى أن علمها بما عملته وقع فى جزء من هذا الزمن وهو وقت نشر الصحف ، وإنما نسب علمها بذلك إلى زمان وقوع كل هذه الدواهى تهويلا للخطب ، وتفظيعاً للحال .

ونسب الإحضار إلى النفس ، مع أنها تحضر بأمر الله - تعالى - كما يؤذن به قوله تعالى : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ »[٢] لأنها لما عملتها فى الدنيا ، فكأنها أحضرتها فى الموقف .

وجوز أن يكون التعبير بقوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ ...) بالتنكير ... الآية ؛ للإشعار بأنه إذا علمت نفس من النفوس ما أحضرت عند قيام الساعة ، وجب على كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هى التى عملت ، أى : إن العاقل يجب عليه أن يتجنب أمراً يخشى منه الندم والمؤاخذة .

---

(١) الكهف ، من الآية رقم : ٤٩

(٢) آل عمران ، من الآية رقم : ٣٠

(فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(الْخُنَّسِ) : جمع خانس . من خنس : إذا رجع . بينما ترى النجم فى آخر البرج ، إذْ كرَّ راجعاً إلى أوله ، وقيل الخنوس : الانقباض والاستخفاء ؛ لأن هذه النجوم عند طلوعها يكون ضوؤها خافتاً ، يقال خنس إبهامه : كنصر وضرب ، خنوساً : قبضه .

(الْجَوَارِى) : جمع جارية ، وهى النجوم السيارة ، من الجرى وهو المر السريع .

(الْكُنَّسِ) : جمع كانس وكانسة ، وهى التى تستتر وتغيب تحت ضوء الشمس ، يقال : كنس الظبى : دخل كناسه ، وهى مستترة فى الشجر الذى يأوى إليه .

(عَسْعَسَ) : أقبل ظلامه أو أدبر ، والمعنيان مأثوران .

(تَنَفَّسَ) : أقبل وأضاء .

(لَقَوْلُ رَسُولٍ) الرسول : جبريل – عليه السلام – وقوله : تبليغه .

(بِضَنِينٍ) بكسر الضاد وفتحها – أى : ليس ببخيل ، بمعنى أنه لايبخل بالوحى ، ولا يقصِّر فى التبليغ والمراد به رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ..

(رَجِيمٍ) أى : مطرود من رحمة الله ، من الرجم : وهو الطرد ، أو مرجوم بالشهب ، أى : أنه ليس بعض المسترقة للسمع .

التفسير

١٥ ، ١٦ - (فَلَآ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) :

شروع فى بيان شأن القرآن العظيم ، والنبوة الخاتمة ، بعد إثبات المعاد .

والمعنى : أنه - سبحانه - أقسم قسماً مؤكدًا على صدق القرآن ، وصحة رسالة محمد - عليه الصلاة والسلام - فقال : (فَلَا أُقْسِمُ) وهى عبارة من عبارات العرب يراد بها تأكيد الخبر وتقريره ، كأنه فى ثبوته وظهوره لايحتاج إلى قسم ، ويقال : إنه يؤتى بكلمة « لا » فى القسم إذا أريد تعظيم المقسم به .

(بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) وهى النجوم الجوارى التى تخنس بالنهار ، أى : ترجع ، ويختفى ضوؤها فيه عن الأبصار مع طلوعها وكونها فوق الأفق ، وتكنس بعد ظهورها فى الليل ، أى : تستتر فى مغيبها ، وتختفى فيه ، فتكون تحت الأُفق بعد أن كانت فوقه . كما تستتر الظباء فى كُنُسِهَا ، وهى مُسْتَتَرهَا فى الشجر الذى تأوى إليه ، فخنوس تلك النجوم : رجوعها وخفاؤها بحسب الرؤية ، وكنوسها : دخولها فى المغيب بعد ظهورها نهارًا . قال القرطبى : النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل وتكنس وقت غروبها ، أى : تستتر .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الأمير - كرم الله وجهه - أنه قال : هى خمسة أنجم : زحل ، والمشترى ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد ، وصفت بما ذكر فى الآية لأنها تجرى وتسير مع الشمس والقمر ، وترجع حتى تختفى تحت ضوء الشمس ، وتسمى المتحيرة لاختلاف أحوالها ، وعن ابن مسعود : أنها بقر الوحش ، وأخرج نحوه ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، وعبد بن حميد ، وروى ذلك أيضاً عن ابن جرير والضحاك قالوا : الخَنَس تأخر الأنف مع ارتفاع قليل من الأرنبة وتوصف به بقر الوحش والظباء .

وإنما أقسم – تعالى – بالخنس الجوارى الكنس لدلالتها بهذه الأحوال المختلفة ، والحركات المنسقة على عظيم قدرة مبدعها ومصرفها – عز شأنه – وإرشاد تلك الحركات على ما فى الكون من بديع الصنع ، وإحكام النظام .

١٧ ، ١٨ – (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) :

عطف على القسم السابق ، أى : لا أقسم بعظمة الليل إذا أقبل ظلامه أو أدبر ، فكلمة « عَسْعَسَ » من الأضداد ، قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى (عَسْعَسَ اللَّيْلُ) : أدبر وقيل : هى لغة قريش ، وقيل المعنى : أقبل ظلامه ، وذلك أوفق للآية التالية ، لما بين إقبال الليل وتنفس الصبح من المناسبة ، (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أى : لا أقسم كذلك بعظمة الصبح إذا تبلج وأضاء ، وامتدَّ حتى صار نهاراً بيِّناً أزال غمة الظلام التى كانت تغمر الأحياء فاستقبلوا يومهم مستبشرين بحياة جديدة فى يوم جديد .

والتعبير بقوله سبحانه : (تَنَفَّسَ) لأن الصبح إذا أقبل : أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ما يصاحبه نفساً له على المجاز .

١٩ – ٢١ – (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) :

ذلك جواب القسم وهو المقسم عليه المراد توكيده وتقريره ، أى : إن هذا القرآن العظيم الناطق بما ذكر من العظائم الهائلة ، (لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) كرمه الله وعظمه ، وهو جبريل – عليه السلام – كما قال ابن عباس وقتادة والجمهور ، وقد قاله من جهة ربه – سبحانه وتعالى – وإنما أسند قوله إليه ، لأنه حامله إلى النبى – ﷺ – وناقله إليه من مرسله – عز وجل – (ذِى قُوَّةٍ) أى : قدرة على ما يكلف به لا يعجز ولا يضعف ، كما قال – سبحانه – فى سورة النجم : « شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ » بمعنى أنه مع قوته يتصف بالحصافة فى العقل والرأى .

جاء فى قوته أنه – عليه السلام – بعث إلى مدائن لوط ، وهى أربع مدائن ، فى كل مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذرارى ، فحملها بمن فيها من الأرض السفلى ، ثم هوى

بها فأهلكها ، وقيل المراد : القوة فى أداء الطاعة لله - تعالى - وترك الإخلال بها . (عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ) أى : له مكانة رفيعة ، ومنزلة سامية ، وشرف عظيم عند صاحب العرش - جل شأنه - والعندية عندية تشريف وإكرام لاعندية مكان ، ولما كانت حال المكانة على حسب حال المكين قال - سبحانه - : (عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ) ليدل على عظم منزلته ومكانته بما لايدع مجالا لشك أو مماراة (مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) أى : مطاع هنالك فى العالم الإلهى بين الملائكة المقربين - عليهم السلام - يصدرون عن أمره ، ويرجعون إلى رأيه ، وهو أمين على الوحى ، لا يزيد فيه ، ولا ينقص مما أمر بتبليغه ، وفى رواية عنه - عليه السلام - قال : « أمانتى أنى لم أومَرْ بشىءٍ فعَدَوْتُهُ إلى غيره »

٢٢ - (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ) :

صاحبهم هو نبينا ﷺ نفى الله عنه الوصف بالجنون لأن بعض قريش كان يرميه بذلك عند ما يسمع منه غريب الخبر عن اليوم الآخر وغيره من مواضع العبر مما لم يكن معروفاً عندهم ، ولا مألوفاً لعقولهم ، والتعبير عنه بصاحبكم أبلغ فى الاستدلال عليهم ، فإنه ﷺ نشأ بينهم من صغره إلى كبره ، وما عرفوا منه إلا كمال العقل ، والتبريز فى الفضل ، وأنه أكملهم وصفاً وأصفاهم ذهناً ، فكيف يوصف بالجنون عندما تأتيه الرسالة من ربه ؟ ولا يصفه بذلك إلا من سفه نفسه وتملكه الحمق والجنون .

٢٣ - (وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) :

أى : وبالله إن محمدًا ﷺ قد رأى جبريل - عليه السلام - بالأفق الأعلى الواضح المُظْهِر لما يُرى فيه[1] من جهة المشرق كما روى عن الحسن وقتادة ومجاهد وسفيان ، وهى الرؤية الأولى بمكة ، الواقعة فى غار حراء ، رآه بالصورة التى خلقه الله عليها ، وعن مجاهد أنه ﷺ رآه نحو جياد وهو مشرق مكة ، وقيل غير ذلك .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال فى الآية : رآه بصورته عند سدرة المنتهى ، والأفق - على هذا - بمعنى الناحية ، أى : ناحيتها

(١) الأفق بالضم وبضمتين : الناحية ، والجمع : آفاق . اهـ : قاموس .

٢٤ - ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ :

أى : وما رسول الله ﷺ ببخيل بما يأتيه من الوحى ، ولا بمقصر فى تبليغه لكم وتعليمكم إياه .

وسمى الوحى غيباً ، لأنه لا يعرفه ، ولا يعلم حقيقته من البشر إلا الذى يوحى إليه ، أو المعنى أنه ﷺ ليس بمتهم على الغيب ، بل هو صادق فى كل ما أخبر به عن الله تعالى - وكما لم يعرف عنه الكذب فى ماضى حياته ، فهو غير متهم فيما يحكيه عن جبريل - عليه السلام - وذلك على قراءة بظنين .

٢٥ - ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ :

أى : ليس القرآن المنزل على محمد ﷺ بقول شيطان مسترق للسمع من الملأ الأعلى حتى تقولوا إنه كهانة ، ولا يتأتى أن يكون كذلك ، لأن صاحبكم قد عرف بصحة العقل وبالأمانة على الغيب ، فلا يكون ما يحدثكم به من أخبار الآخرة ، ومن الشرائع والأحكام قول شيطان رجيم ، قال تعالى : « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ »[1] .

٢٦ - ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ :

يتهمهم بالضلال واعتبارهم ضلالا فيما يسلكونه فى أمر القرآن العظيم ، أى : فأى مسلك تسلكون ، وقد قامت عليكم الحجة بوضوح آياته ، وسطوع براهينه ، وأحاط بكم الحق من كل جوانبكم ، وذلك كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً فى بنيات[2] الطريق : هذا الطريق الواضح ، فأين تذهب؟ ! مثلت حالهم فى تركهم الحق مع وضوحه وظهوره ، وعدولهم عنه إلى الباطل مع قبحه ومقته ، بحالة من ارتكب شططاً فى سيره .وقيل : فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه من عند الله

---

(١) الشعراء ، الآيات : ٢١٠ - ٢١٢

(٢) وهى الطرق الصغيرة المتفرعة المتشعبة من الجادة .

عز وجل - كما قال الصديق - رضى الله عنه - لوفد بنى حنيفة حين قدموا مُسْلِمين ، وأمرهم فتَلَوْا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذاب الذى هو فى غاية الهذيان والركاكة .فقال : ويحكم أين يذهب بعقولكم ؟ ! والله إن هذا الكلام لم يخرج من إله . وقال قتادة : (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) أى : عن كتاب الله وعن طاعته ، وقال الزجاج : معناه : فأى طريق تسلكونه أبين من هذه الطريقة التى بينت لكم ، وقال الجنيد : فأين تذهبون عنا وإن من شىء إلاّ عندنا .

٢٧ ، ٢٨ - (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) :

أى : ماهذا القرآن إلاّ ذكر لجميع الناس يتذكرون به ما وقر فى قلوبهم من الميل إلى الخير ، وإنما أنساهم ذكره ما طرأ على طباعهم من أنواع السوء التى تحدثها أمراض التقلب فى الحياة (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) بدل من العالمين ، أى : إنه ذكر يتذكر به من وجَّه إرادته للاستقامة على الجادة الواضحة ، بملازمة الحق والعدل ، وتحرى الصواب ، وأما من صرف نفسه عن ذلك ولم يرد إلاّ الاعوجاج والانحراف ، فذلك الذكْرُ لا يؤثر فيه ، ولا يخرجه عن غفلته . هذا ، وقد فرض الله على المكلف أن يوجه فكره نحو الحق ليطلبه وأن يحفز عزمه إلى الخير ليكسبه .

٢٩ - (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) :

روى عن سليمان بن موسى والقاسم بن مخيمرة أنه لما نزلت (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) قال أبو جهل : جعل الأمر إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم ، فأنزل الله تعالى : (وَمَا تَشَآءُونَ ...) الآية .

أى : وما تشاءون الاستقامة مشيئة نافعة لسبب من الأسباب ، أو فى وقت من الأوقات إلا أن يشاء الله تلك المشيئة المستتبعة للاستقامة ، فإن مشيئتكم لا تستتبع الاستقامة بدون مشيئة الله تعالى ، فهو سبحانه خلق العبد وأحاط علمه بكل ما يصدر عنه ويضمره من خير وشر ، واستقامة وضلال وفق اختياره ، وبدافع من مشيئته واستعداده ، فإن فعل

بسبب ذلك خيرًا أعانه الله عليه ، وإن كان شرًّا لم يُعِنْهُ وتركه للشياطين يضلونه ، ولهواه يتحكم فيه ، ولهذا يكون مسئولا عن كل مايفعله لأنه فعله مختارًا حسب استعداده الذى عَلِمَهُ الله فيه عند خلقه ، كما قال تعالى : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »[1] .

وهو سبحانه : (رَبُّ الْعَالَمِينَ) أى : مالك الخلق ومربيهم ، ومانحهم كل ما يتمتعون به من القوى والقُدَرِ ، وصاحب السلطان عليهم ، تبارك اسمه ، وعلا علوًّا كبيرًا ، والله أعلم.

---

(١) سورة الملك ، الآية : ١٤

سورة الانفطار

هى سورة مكية وآياتها تسع عشرة آية

صلتها بما قبلها :

هذه السورة الكريمة تتفق مع السورة التى قبلها وهى سورة التكوير فى أن كلا منهما تتحدث عمّا يصيب الكون من تغيّر وتبدّل قبيل القيامة ، ففى التكوير يأتى قوله تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » إلى قوله - جل شأنه : « وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ » وفى سورتنا هذه يجىء قوله - عز من قائل - : (إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ) إلى قوله تعالى : (وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) فهدف السورتين يكاد يكون متفقاً على غرض واحد : وهو بيان ما يحدث قبيل يوم القيامة من أحوال عظام وأحداث جسام .

بعض مقاصد السورة :

١ - تحدثت السورة فى أولها عما يحدث عند قيام الساعة من انفطار السماء وتشققها ، وانتثار الكواكب وتفرقها ، وانتزاعها من أماكنها ، وتفجير البحار وامتزاج مياهها وتفرقها فى جنبات الأرض ، وإزالة ما بينها من البرازخ والحواجز ، ثم بعثرة القبور وإخراج ما فيها من الأموات وقد عادت لهم الحياة ، وما يعقب ذلك من حشر وحساب وجزاء (إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ) إلى قوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّاقَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) .

٢ - ثم تذكر السورة الكريمة اغترار الإنسان وانخداعه بإمهال الله له وترك عقابه على ما يبدر منه من شرك ومعاص حيث لا يقر له بنعمة ، ولا يعرف له - سبحانه - حقه فى إفراده بالوحدانية ، بل يصير كنودًا جحودًا لنعم الله عليه : (يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ) ثم يوضح ويبين - سبحانه - سبب هذا الجحود والكفران وأنه هو التكذيب وعدم الإقرار بيوم القيامة ، أو بالإسلام فيقول : (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) .

٣ – ثم بعد ذلك قسمت النَّاس إلى طائعين أبرار ، وإلى عاصين فجار ، وبينت مآل وعاقبة كل فريق منهم : (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) .

وكانت نهاية السورة فى عرض أهوال اليوم الآخر : (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) ، ثم ختمت بأن الملك له وحده ، وأن الأمر أمره ، فليس لأحد فى هذا اليوم حكم ولا أمر : (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾)

المفـــردات :

(انفَطَرَتْ) : تشققت وتصدعت .

(انتَثَرَتْ) : تساقطت متفرقة .

(فُجِّرَتْ) : من الفَجْرِ : وهو شق الشيء شقاً واسعاً ، والمراد : فتح بعضها على بعض فاختلط العذب بالملح .

التفسير

١ – ٥ – (إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) :

أى : إذا السماء انشقت وتصدعت وصارت أبواباً وذلك لنزول الملائكة ، وإذا الكواكب تساقطت متفرقة منتشرة كجواهر ولآلىء قطع سلكها وبتر خيطها ، وإذا البحار فتحت وشقت جوانبها وزال ما بينها من الحواجز والبرازخ واختلط ماؤها العذب بمائها الملح الأجاج حتى صارت بحرًا واحدًا ثم تنشف الأرض جميعاً وتجف وتيبس فتصير بلا ماء ويقضى على أسباب الحياة فيها ، وإذا القبور قلب ترابها وصار أعلاها أسفلها ، وأخرج مَنْ دفن فيها (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) هذا جواب (إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ) وما عطف عليه ، أى : إذا حصل هذا علمت كل نفس مكلفة علماً تفصيليا عند نشر صحف أعمالها ما قدمته من عمل خير أو شر ، وما أخّرته من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعد ذلك ، أو ما قدمته من أموال لنفسها مما أنفقته فى سبيل الله ، وما أخرته وتركته لورثتها يستمتعون به وينتفعون وتحاسب هى عليه ، أما العلم الإجمالى لذلك فإنه يحصل قبل ذلك ؛ لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصى يرى آثار الشقاء فى أول الأمر .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾)

المفردات :

(مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) : ما خدعك وجرَّأك على عصيان ربِّك .

(فَسَوَّاكَ) : فجعل أعضاءك سويَّة سليمة مهيأة لمنافعها .

(فَعَدَلَكَ) : فساوى بين أعضائك فلم تتفاوت فى طول أو قصر ، أو لون أو شكل ، من : عدل فلاناً بفلان : إذا ساوى بينهما ، وقيل غير ذلك وسيأتى .

(فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ) : وضعك وجعلك فى أى صورة اقتضتها مشيئته .

التفسير

٦ ، ٧ ، ٨ - (يَآأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ) :

هذا النداء للكافر الذى جحد بربه ، أو هو عام يشمل العصاة أيضاً ، أى : أى شىء خدعك وسوّل لك وجرأك على عصيان الله والمخالفة عن أمره ، وقد رباك بنعمه ورعاك بكرمه فى جميع أطوارك ومختلف أحوالك ، فجعلك خليفة فى أرضه ، وميزك بالعقل والتكليف وحمّلك الأمانة التى أشفقت السمٰوات والأرض والجبال من حملها ، وسخّر لك ما فى السمٰوات وما فى الأرض جميعاً منه ثم كان منك أن أعمتك النعمة وشغلتك عن المنعم حتى جحدته وكذبت رسوله ، والأجدر بك أن تقابل الإحسان بالطاعة ، والنعم بالشكر ، فالغرور أمارة الحمق وآية الجهل ، روى أن النبىّ ﷺ قرأ هذه الآية : « يَآأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) فقال : « غره الجهل » ، وقاله عمر - رضى الله عنه - أيضاً وقرأ : « إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا » .

(الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ) : هذه صفات مقررة للربوبية مبينة وموضحة لكرم الله على الإنسان ، مشيرة إلى أن ما كذبوا به من البعث والجزاء هو حق ثابت ؛ لأن من قدر على الخلق بدءًا كان أقدر عليه إعادة ، والتسوية : جعل الأعضاء سليمة سوّية معدّة لقيامها بمهامها وأدائها لمنافعها على وفق حكمته - تعالى - ومشيئته . قال ذو النون : سواك ، أى : سخّر لك المكونات أجمع ، وما جعلك مُسَخَّرًا لشىء منها . ثم أنطق لسانك بالذكر وقلبك بالعقل ، وروحك بالمعرفة ، وسرك بالإيمان ، وشرفك بالأمر والنهى ، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلا (فَعَدَلَكَ) أى : فعدل أعضاءك ببعضها حتى اعتدلت وتساوت من غير تفاوت ، فلم يجعل إحدى اليدين أو الرجلين أطول ، ولا إحدى العينين أو الأذنين أو المنخرين أوسع ، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود ، بل لقد تم التناسق والتناسب بينها فى كمال إبداع ، وعظيم إحكام ، أو صرفك عن خلقة غير ملائمة لك إلى خلقة مستوية مستقيمة لا منكسة كالبهائم ، وجعلك تتناول طعامك بيدك ، وأكرمك بأمور كثيرة

ونعم عديدة : « وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »[1] أو صرفك عن خلقة غيرك وجعلك على صورة وخلقة حسنة مفارقة لسائر الخلائق .

هذا وإن تفاوت النّاس فى الحسن مما يدل على كمال اقتدار الله – سبحانه – وعظيم إبداعه .

(فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ) أى : خلقك وكوّنكَ وجعلك فى أى صورة من الصور التى اقتضتها مشيئته ، وأرادتها حكمته من الصور المختلفة فى الحسن ، والذكورة والأنوثة ، والطول والقصر ، وغير ذلك من الصفات التى تتفاوت الناس فيها ، أو ركبك ماشاء من التراكيب تركيبا حسنا .

(كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۞)

المفردات :

(كَلَّا) : ردع وزجر وإبطال لقول من يقول .

(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) : وإن عليكم من الملائكة لمحصين رقباء لأعمالكم لا يفوتهم منها شئ .

(كِرَاماً) : ذوى أفعال ظاهرة محمودة ومحاسن كبيرة .

التفسير

٩ – (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) :

(كَلَّا) حرف للردع والزجر ، أى : انزجروا وارتدعوا عن الاغترار بكرم الله والتعلق به وجعله وسيلة وذريعة إلى الكفر والعصيان مع كونه موجباً للشكر والطاعة ، ومانعاً من

---

(١) سورة إبراهيم ، من الآية ٣٤ .

الفسوق والتمرد وذلك عند ذوى الفطر السليمة ، والطبائع المستقيمة أما أن تكون عاقبة ومآل إكرام الله لكم هو النكران والجحود فذلك آية على دنس النفس ، وخبث الطوية ، وسوء السريرة ، ولؤم الطبع ، وانحطاط الهمة ، ولله در القائل :

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تَمَرَّدَا

هذا ، وقد روى أن أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب ــ كرم الله وجهه ــ دعا غلاماً له مرات فلم يجبه ، فنظر أمير المؤمنين فإذا الغلام بالباب ، فقال له : لِمَ لَمْ تُجِبْنِى ؟ فقال الغلام : لثقتى بحلمك ، وأمنى من عقوبتك . فاستحسن جوابه وأعتقه . ونقول : إن أغلب الظن أن أمير المؤمنين لم يستحسن جوابه وإنما أعتقه للؤمه وخسة طبعه ، ولعله ــ كرم الله وجهه ــ أعتقه رغبة عن معاشرة من يقابل الإحسان بالكفران ؛ إذ الطبائع السليمة والفطر المستقيمة يأسرها المعروف ، ويملكها ويأخذ بأعناقها إسداء الخير وجميل الفعل .

(بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) : الكلام يشير إلى أن هنا جملة مقدرة ، كأنه قيل : وأنتم لاترتدعون ولا تنزجرون عن الاغترار بكرم الله ، بل تجترئون وتسرعون بالهجوم على ارتكاب ماهو أشد منه وأعظم جرماً حيث تكذبون بالجزاء والبعث ، وفيه من الترقى والانتقال من الأهون ــ وهو الغرور ــ إلى ما هو أفظع وأغلظ وهو التكذيب ، أى : أنهم تجاوزوا الغرور إلى ما هو أدهى منه وأمَرُّ .

وقال الراغب : (بَلْ) هنا لتصحيح الثانى ــ وهو تكذيبهم بالجزاء والحساب ــ وإبطال الأول ــ وهو الاغترار بكرم الله ــ كأنه قيل : ليس هنا مقتض لغرورهم ، ولكن تكذيبهم حملهم على ما ارتكبوه .

١٠ ــ (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) :

أى : تكذبون وتجحدون بالجزاء يوم القيامة والشأن والحال أن عليكم من قبلنا لحافظين لأعمالكم لايغادرون صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصوها عليكم .

١١ - (كِرَاماً كَاتِبِينَ) :

أى إن هؤلاء الملائكة الحفظة كرام لدينا ذوو محاسن كبيرة ومنزلة عظيمة ومكانة رفيعة ، وهم يكتبون كل ما يصدر منكم ويسطرونه فى صحائف أعمالكم .

وفى تعظيم الله لهؤلاء الكرام الكاتبين بالثناء عليهم تعظيم وتفخيم لأمر الجزاء وأنه عند الله من جلائل الأعمال ؛ حيث استعمل هؤلاء الكرام لديه - تعالى - فى ضبط وإحصاء ما يحاسب الناس عليه ، وحقاً :

إن العظائمَ كُفْؤُها العظماء .

وقال الإمام الآلوسى نقلا عن المهدوى : « ومن يكتب الأعمال ملكان : كاتب الحسنات وهو على المشهور على العاتق[1] الأيمن ، وكاتب ما سواها وهو على العاتق الأيسر ، والأول أمين على الثانى فلا يمكنه من كتابة السيئة إلا بعد مضى ست ساعات من غير مكفر لها ، ويكتبان كل شىء حتى الاعتقاد والعزم ، وحتى الأنين فى المرض ، وكذا يكتبان حسنات الصبى على الصحيح ، ويفارقان المكلف عند الجماع ، ولا يدخلان مع العبد الخلاء ، أخرج البزار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللهَ يَنهَاكُم عن التَّعرِّى ، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين اللذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط ، والجنابة ، والغسل » .

١٢ - (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) :

من الأفعال قلَّ أو كثر ، دق أو عظم ، وليس ذلك إلا للجزاء وإقامة الحجة على الناس ، وإلا كان عبثاً يُنَزَّهُ ويُقَدَّس عنه - جل شأنه - .

---

(١) العاتق : موضع الرداء من المنكب ، والمنكب : مجمع عظم العضد والكتف .

(إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(الْأَبْرَارَ) : جمع بار ، مشتق من البر : وهو التوسع فى عمل الخير .

(لَفِى نَعِيمٍ) النعيم فى الأصل : النعمة الكثيرة ، والمراد هنا : الجنة لما فيها من ضروب النعم .

(الْفُجَّارَ) : جمع فاجر : وهو من شق ستر الدين وجاهر بالعصيان . من الفَجْرِ : وهو شق الشىء شقًّا واسعاً .

(لَفِى جَحِيمٍ) الجحيم : مأخوذ من الجحمة : وهى شدة تأجج النَّار ، والمراد به هنا : النَّار فى الآخرة .

(يَصْلَوْنَهَا) : يقاسون حرها ، أو يدخلونها .

التفسير

١٣ ـ (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ) :

الأبرار : مشتق من البر ، وهو التوسع فى فعل الخير وأداء الطاعات ، وفى سنامها وقمتها طاعة الله ورسوله ، ثم بر الوالدين ، وقد روى أن رسول الله ﷺ سئل عن البر ؟ فتلا قوله تعالى : « لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ »

إلى قوله تعالى : « أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ »[1] فهؤلاء الأبرار الطائعون الأخيار يشملهم الله برضوانه ويدخلهم فى نعيمه وجناته ، ويقيهم عذابه ، ويحفظهم من سخطه وعقابه .

١٤ - (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) :

أى : وإن الفجرة الذين شقوا وهتكوا ستر الدين ، وجاهروا الله بالمعاصى ولم يستحيوا منه - سبحانه - إن هؤلاء لمحاطون بالنار تضمهم وتشملهم وقد اشتد تأججها وعَظُمَ لهيبها .

١٥ - (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ) :

أى : يدخلونها ويقاسون حرها ولظاها يوم الجزاء والحساب الذى كانوا به يكذبون.

١٦ - (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ) :

هذه الآية الكريمة قد جاءت قطعاً لرجاء الفجار وتيئيسا لهم من أن ينقطع عنهم العذاب ، أن ينالوا برد الراحة ، أى : أنهم ليسوا بمنأى عن النار وعذابها طرفة عين ، وهو كقوله تعالى : « وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا »[2] وذلك للدلالة على سرمدية العذاب ودوامه . وقيل معناه : وما كانوا غائبين عن النار قبل ذلك بالكلية ، بل كانوا يجدون سَمومها ولَفْحها ولظاها فى قبورهم ، يدل على ذلك قوله ﷺ : « القبرُ روضةٌ من رياض الجنة أو حُفْرةٌ من حُفَر النار » .

وفى تنكير النعيم والجحيم ما يشير إلى التفخيم والتعظيم فى شأن نعيم الأبرار ، وإلى التهويل والتبشيع فى حق عذاب الفجار . قيل : أخبر الله فى هذه السورة أن لابن آدم ثلاث حالات : حال الحياة التى يحفظ فيها عمله ، وهى حالته فى الدنيا ، وحال الآخرة التى يجازى فيها ، وحال البرزخ وهو قوله تعالى : (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ).

---

(١) من الآية : ١٧٧ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٣٧ من سورة المائدة .

١٧ - (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) :

هذا تفخيم وتعجيب وتعظيم لشأن يوم الجزاء وتهويل له ، أى : ما أعلمك ما هو يوم الدين ؟ وأى شىء هو فى شدته وهوله ؟

١٨ - (ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) :

ذلك تفخيم لهذا اليوم إثر تفخيم وتعجيب منه بعد تعجيب أى : إن أمره لعجيب ، وشأنه لعظيم بحيث لا يستطيع أحد أن يدرك حقيقته أو يقف على كنهه لهوله وعظمته ، فهو فوق الوصف والبيان .

قال ابن عباس فيما روى عنه : كل شىء من القرآن من قوله : (وَمَآ أَدْرَاكَ) فقد أدراه للرسول ، وكل شىء من قوله : (وَمَا يُدْرِيكَ) فقد طوى عنه .

١٩ - (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ) :

أى : فى ذلك اليوم وهو ما هو من الشدة والهول لا يملك ولا يستطيع أحد أن يجلب لغيره نفعاً أو يدفع عنه ضراً ، بخلاف ما كان عليه الحال فى الدنيا ؛ فإن أهلها كانوا يتغلبون على الملك ، ويعين بعضهم بعضاً ، ويحمى بعضهم بعضاً ، فإذا كانت القيامة بطل ملك بنى الدنيا وزالت رياستهم ، فلا يحمى أحدٌ أحدًا ، ولا يغنى عنه شيئاً ولا يتغلب أحد على ملك غيره ، وهنا وعيد عظيم وتخويف شديد حيث عرفهم أنه لايغنى عنهم إلا البر والطاعة يومئذ دون سائر ما كان يغنى عنهم فى الدنيا من مال وولد وأعوان وشفعاء ، فالأمر كله فى هذا اليوم لله وحده ، فقد انقطعت الأسباب وذهبت الوسائل ، وزالت الأغيار ، والله وحده هو صاحب الملك والسلطان ، وذلك كقوله : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ . لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [1] » وقال قتادة : (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ) قال : والأمر - والله - اليوم لله - يريد فى الآخرة - وقال الواحدى : والمعنى أن الله - تعالى - لم يملِّكْ فى ذلك اليوم أحدًا شيئاً من الأمور كما ملكهم فى دار الدنيا .

---

(١) سورة غافر من الآية ١٦

هذا ، وقد قال رسول الله ﷺ : « يا بَنِى عبدِ المطلبِ اشتروا أنفسَكم مِن اللهِ ، يا صفيةَ عمةِ رسول الله ، يا فاطمةَ بنت رسول الله اشترِيا أنفسَكما من اللهِ لا أغنى عنكما من اللهِ شيئاً ، سَلَانِى من مالى ما شئتما » وصدق الله ورسوله .

سـورة المطففين

مكية وآياتها ست وثلاثون آية

صلة هـذه السورة بما قبلها :

أنها تنذر بالويل والثبور والعذاب بالنار فى الآخرة ، وتهدد الظالمين الذين ينتقصون حق غيرهم فهى تتلاقى مع السورة قبلها فى وعيد المخالفين الضالين ، كما أنها تبيّن ما أجملته سورة الانفطار من عذاب الفجار ، وثواب الأبرار .

بعض مقاصد السورة :

١ ـ جاءت السورة فى أولها مهددة منذرة هؤلاء الذين يجورون ويظلمون سواهم بالاستيلاء على حقهم ، واستلاب أموالهم ضاربين بعقاب الله لهم فى الآخرة عرض الحائط : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ...) إلى قوله : « أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) .

٢ ـ تحدثت السورة عن مآل الفجار ، وأنَّهُمْ سيحاسبون على أعمالهم التى سجلت عليهم فى كتاب قد حفظ فى مكان حريز ضيق فى أسفل جهنم ، لايزاد فيه ولا ينتقص منه ، وأنهم لاينعمون بفضل الله ورحمته ولا يسعدون برؤيته يوم القيامة ، وأنهم مع ذلك يصْلَوْنَ جهنم ويعذبون بعذابها الأليم : (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) إلى قوله : (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) .

٣ ـ ثم أتت السورة بنعيم الأبرار الذين جمعوا خصال الخير ، وأبانت سعادتهم فى الآخرة ، وأنهم فى مرضاة ربهم وكرمه : (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) إلى قوله : (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) .

٤ ـ وفى ختام السورة يجىء ويظهر ما يلقاهُ المجرمون من سخرية المؤمنين واستهزائهم بهم جزاء ما كان المجرمون يفعلونه بالمؤمنين فى الدنيا من الإيذاء والسخرية جزاءً وفاقاً :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) .

سبب نزول السورة :

عن ابن عباس قال : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا أخبث الناس كيلا فأنزل الله – عز وجل – : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) فأحسنوا الكيل بعد ذلك » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③)

المفردات :

(وَيْلٌ) : هلاك وبوار ، أو مقر فى الجحيم .

(لِلْمُطَفِّفِينَ) المطففون : جمع مطفف ، وهو الذى يبخس وينقص فى الكيل والوزن ، وأصله : من الطفيف ، وهو الشىء اليسير .

(يُخْسِرُونَ) : ينقصون ويظلمون غيرهم .

التفسير

١ – ٣ – (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) :

أى هلاك وبوار ، أو مقر فى النار لهؤلاء الذين إذا أخذوا حقهم من سواهم أخذوه كاملا غير منقوص ، وهم بعملهم هذا يحرصون أن ينالوا حقهم دون حيف أو ظلم من أحد عليهم ،

ولو أدى ذلك إلى أن يحملوهم ويقسروهم على ذلك قسرًا وحملاً ، ومع ذلك فهم فى إيفاء سواهم مافى ذمتهم من حق وما عليهم من تبعة يخسرون غيرهم وينقصونهم ، وينالون من حقهم لديهم ، لا يبرئون ذمتهم ، ولايتحللون من تبعتهم ؛ إذ قد تملكتهم الأثرة واستولى عليهم حبهم لأنفسهم ، وهذا آية جشع نفوسهم ، وتمكن الطمع منهم ، وتسلط الظلم عليهم ، وإلّا لأنصفوا النّاس منهم ، وأقاموا العدل فيهم ، فأعطوهم مثل ما أخذوا منهم وهذا الوعيد بالويل والثبور وإن جاء فى حق البخس والنقص فيما يكال ويوزن إلا أن النص الكريم يتسع ويتناول غير ذلك من سائر الحقوق التى يتداولها الناس فيما بينهم .

قال القشيرى : لفظ المطفف يتناول التطفيف فى الوزن والكيل ، وفى إظهار العيب وإخفائه ، وفى طلب الإنصاف والانتصاف ؛ ويقال : من لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه فليس بمنصف والمعاشرة والصحبة من هذه الجملة ، والذى يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه من هذه الجملة ، ومن طلب حق نفسه من الناس ولا يعطيهم حقوقهم كما يطلبه لنفسه فهو من هذه الجملة ، والفتى من يقضى حقوق الناس ولا يطلب من أحد لنفسه حقًّا . ا هـ .

وفى التعبير بالمطففين ما يشير إلى أن الذى يطمع فى حق سواه إنما يأخذ حقيرًا وينال تافهاً قليلاً ؛ فالمطفف مأخوذ من الطفيف : وهو النزر القليل ، وقال الزجاج : إنما قيل للفاعل من هذا مطفف ؛ لأنه لايكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشىء الطفيف الخفيف .

وروى ابن قاسم عن الإمام مالك أنه قرأ : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) فقال : لا تطفف ولاتَخْلِبْ (لاتخدع) ولكن أرسل وصب عليه صبًّا ، حتى إذا استوفى أرسل يدك ولا تمسك . وقال ابن الماجشون : نهى رسول الله ﷺ عن مسح الطفاف وقال : « إن البركة فى رأسه » وقال : بلغنى أن كيل فرعون كان مسحاً بالحديدة .

ولعل السر فى مجىء (عَلَى) بدل (مِنْ) فى قوله تعالى : (إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ) للإشعار والإيذان بأن عملهم هذا فيه إضرار بالمكتال منهم وتحامل عليهم . وقال الفراء : (مِنْ) و (عَلَى) يتعاقبان فى هذا الموضع ؛ فإذا قال : اكتلت عليك ، فإنه قال : أخذت ما عليك ، وإذا قال : اكتلت منك ، فكقوله : استوفيت منك .

هذا ، وقد تهدد الرسول ﷺ وتوعد من يفعلون ذلك والذين يماثلونهم من الفجرة بما رواه ابن عباس عن النبي – عليه الصلاة والسلام – قال : « خمس بخمس ، ما نقضَ قومٌ العهدَ إلّا سلط اللهُ عليهم عدوَّهم ، وما حكموا بغيرِ ما أنزلَ اللهُ إلّا فشا فيهمُ الفقرُ ، ولا ظهرتِ الفاحشةُ فيهم إلا ظهر فيهم الطاعونُ ، ولا طففوا الكيلَ إلاّ مُنعوا النباتَ وأخذوا بالسنين ، ولا مَنعوا الزكاةَ إلّا حبَسَ اللهُ عنهم المطرَ » وقال مالك بن دينار : دخلت على جارٍ قد نزل به الموت فجعل يقول : جبلين من نار ! جبلين من نار ! فقلت : ما تقول ؟ أتَهْجُر ؟ (أتهذى) قال : يا أبا يحيى : كان لى مكيالان أكيل بأحدهما وأكتال بالآخر ، قال مالك : فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ، فقال : يا أبا يحيى : كلما ضربت أحدهما بالآخر ازداد عظما ، فمات من وجعه .

(أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾)

المفــردات :

(أَلَا يَظُنُّ) الظن : هو إدراك الطرف الراجح ، ويراد به هنا : التردد والتخمين ، وقيل غير ذلك .

قال الراغب : الظن : اسم لما يحصل من أمارة ، ومتى قويت أدت إلى العلم ، ومتى ضعفت جداً لم تتجاوز حد الوهم .

التفسير

٤ – (أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ) :

هذا إنكار لفعلهم وتقبيح لصنيعهم وتعجيب عظيم لحالهم في الاجتراء على التطفيف حتى كأنهم لايخطرونه ببالهم ، ولا يمرونه بخاطرهم ، ولا يظنون ظنا أنهم مبعوثون ومنشورون من قبورهم أحياء فمحاسبون على مقدار الذرة والخردلة ، فالظن والحدس فى

هذا المقام كاف لمنعهم وردعهم عن اقتراف البخس والنقص فى الكيل والوزن أخذًا بالأحوط، ودفعاً لما عساه أن ينالهم من نكال وعقاب جزاء بخسهم ونقصهم ، فما بالهم لو علموا وأيقنوا أنهم ملاقون ربهم فمجازيهم على ما اقترفوه من ظلم وما فعلوه من جرم وإثم .

٥ - (لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) :

وهو يوم القيامة ، فعظمه كبير لايقادر قدره ، وقد وصف بذلك لعظم ما فيه من الأهوال والشدائد الجسام .

٦ - (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى : يقومون لحكمه وقضائه ولمحض أمره وطاعته لا لشىء آخر ، وروى عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى هذه الآية قال : « حتى يغيبَ أحدُهم فى رشحهِ إلى أنصاف أذنَيْه » وقد ورد أنه المراد من قوله تعالى : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » . وقد روى عن النبى ﷺ : « إنه ليخفَّف عن المؤمنِ حتى يكونَ أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا » وهو مروى عن ابن عباس وإسناده صحيح .

والآية تدل على التهديد والوعيد ؛ حيث أبانت أن الناس تقوم لرب العالمين ، والقيام فى هذا اليوم لايكون إلّا مع غاية الخشوع ونهاية الذلة والخوف والرهبة من جلال الله وغضبه هذا مع وصف نفسه – جل شأنه – بأنه رب العالمين ؛ فهو مالك نواصيهم ، والقاهر فوقهم والمتصرف فيهم تصرفاً تامًّا ولا معقب لحكمه .

(كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(الْفُجَّارِ) : جمع فاجر ، وهو من شق وهتك ستر الدين وتجرأ عليه .

(سِجِّينٍ) : جب فى جهنم ، وقيل : فى حبس وضيق شديد ، فِعِّيل من السجن ، وقيل غير ذلك .

(مَرْقُومٌ) : مكتوب كالرقم فى الثوب لا يمحى ، وقيل غير ذلك .

(مُعْتَدٍ) : فاجر جائر عن الحق .

(أَثِيمٍ) : كثير الإثم منهمك فى الشهوات .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أكاذيب وخرافات الأوائل سطروها وزخرفوها فى كتبهم .

التفسير

٧-٩ - (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ) :

(كَلَّا) : ردع وزجر وانتهار لهم ، أى : ارتدعوا وانزجروا عن تطفيف الكيل والوزن ، أو عن التكذيب بالآخرة (إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) : هذا تهديد لهم وتأكيد على أن أعمال الفجار وهم من هتكوا ستر الدين وتجرأوا عليه وبارزوا الله وجاهروه بالمعاصى أى : أن أعمال هؤلاء مسطورة ومكتوبة فى شر موضع ، إنها فى جب أسفل الجحيم ، أو فى حبس وضيق شديد ، وكان أمره على هذا النحو للدلالة على خساسة وحقارة منزلتهم ، لأن كتابهم يحل وينزل بسبب الإعراض عنه والإبعاد له محل الزجر والهوان ، وقال القشيرى : سِجِّينٍ : موضع فى السافلين يدفن فيه كتاب هؤلاء فلا يظهر ، بل يكون فى ذلك الموضع كالمسجون ، وهذا دليل على خبث أعمالهم ، وتحقير الله إياهم ، ولهذا قال فى كتاب الأبرار : يشهده المقربون (كِتَابٌ مَرْقُومٌ) أى : مكتوب كالرقم فى الثوب لا ينسى ولا يمحى .

وقال قتادة : مرقوم ، أى : مكتوب رقم لهم بشر لايزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحدٌ .

١٠ - ١٢ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) :

أى : هلاك شديد وبوار ثابت لايزول ولا يحول لهؤلاء المكذبين الجاحدين (الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) وصفهم - سبحانه - وكشف عن حقيقة تكذيبهم ، وبيّن أنهم هم الذين يكذبون بيوم القيامة : يوم الحساب والجزاء (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) جاء سبحانه فى هذه الآية بما يؤكد ذمهم وتجريمهم ، أى : وما يكذب بهذا اليوم إلا كل متجاوز حدود النظر والاعتبار بآيات الله المتلوّة والمنظورة ، أوكل من تعدى حدود الله وفجر وجار عن الحق وطرحه وراء ظهره فلم يعمل به ، وكان كثير الإثم عظيم الذنب منهمكا فى شهوات الدنيا الفانية حتى شغلته عما وراءها من اللذات التامة الباقية فى الآخرة ، وحملته ودفعته إلى جحدها وإنكارها .

١٣ - (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

أى : إذا سمع ذلك الكافر الفاجر كلام الله - تعالى - من رسول الله ﷺ قال - مكذباً - : إنّ ماتقوله وتتلوه يا محمد هو أكاذيب وخرافات الأوائل سطروها وزخرفوها فى كتبهم نَسَبْتَها زورًا وبهتاناً إلى الله ، فهى ليست منزلة من عنده - سبحانه - .

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) : غطّى وغشّى قلوبهم ما اقترفوه من الذنوب فلم يهتدوا إلى الحق .

(إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) : إنهم لممنوعون عن رؤية الله فى الآخرة .

(لَصَالُوا الْجَحِيمِ) : لداخلو النار ، أو لمقاسون حرها وسعيرها .

التفسير

١٤ - (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

أى : ليس الأمر كما زعموا وادعوا أن القرآن أساطير وأكاذيب الأولين ، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله محمد ﷺ وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذى قد لبس قلوبهم وغطاها من كثرة الذنوب والخطايا ، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « إنَّ العبدَ إذا أذنبَ ذنباً كانتْ نكتة سَوداء فى قلبهِ ، فإن تابَ صقلَ قَلبه ، فإنْ زادَ زادت » فذلك قول الله - تعالى - : (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت .

١٥ - (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) :

أى : حقًّا إنَّهُمْ مع ما يلقونه من الضيق الشديد فى سجن مقيم وعذاب أليم هم أيضاً محجوبون وممنوعون من رؤية ربهم وخالقهم فى الآخرة ، قال الزجاج : فى هذه الآية دليل على أن الله - عزَّ وجل - يُرى فى القيامة ، ولولا ذلك ماكان فى هذه الآية فائدة ، ولا خسَّت[1] منزلة الكفار بأنهم يحجبون ، وقال - جل ثناؤه - : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »[2] فأعلم الله - جل ثناؤه - أن المؤمنين ينظرون إليه ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه .

وقال مالك بن أنس : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه . وقال الشافعى

(١) خس الشئ يخس : من بابى ضرب وتعب ، خسامة : حقر فهو خسيس . المصباح المنير .
(٢) سورة القيامة ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا ، ويرى قوم أنهم محجوبون وممنوعون عن رضاه ، قال مجاهد فى قوله تعالى : (لَمَحْجُوبُونَ) أى : عن كرامته ورحمته ممنوعون ، وقال قتادة : هو أن الله لا ينظر إليهم برحمته ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، والجمهور على الرأى القائل بأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه .

١٦ - (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) :

أى : ثم هم مع هذا الحرمان من رؤية الرحمن هم كذلك أيضاً من الملازمين لنار اشتد تأججها يحترقون فيها ، وغير خارجين منها .

١٧ - (ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) :

ثم يقال لهم من قبل الله القهار - وذلك على سبيل التقريع والتصغير والتحقير - : هذا العَذَاب الذى تَذوقونه وتصلونه وتتقلب وجوهكم فيه هو ماكان الرسول يحذركم ويخوفكم وينذركم به ، فكنتم تستكبرون وتستهزئون وتكذبون به ، وها هو ذا قد لحقكم فلا تستطيعون له دفعاً ولا منه فكاكاً .

(كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾)

المفـــردات :

(عِلِّيُّونَ) : عَلَم على ديوان الخير الذى كتب فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين ، وقيل غير ذلك .

(مَرْقُومٌ) : رقم وكتب فيه بالنجاة من الحساب يوم القيامة .

(يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) : يحضره ويحفظه المقربون من الملائكة ، أو يشهدون بما فيه يوم القيامة .

التفسير

١٨ – (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) :

لما ذكر – سبحانه – حال الفجار المطففين أتبعه بذكر حال الأبرار الذين لايجورون ولا يظلمون فقال : (كَلَّا) أى : ليس الأمر كما يزعمه هؤلاء الفجرة من إنكار البعث ومن أن القرآن الكريم خرافات وأكاذيب الأولين ، ثم قال :(إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) أى : إن ما يفعله الأبرار من أعمال الخير والطاعة مسطور ومكتوب فى ديوان الخير الذى يكتب فيه كل ما عملته الملائكة وصالحو المؤمنين من الإنس والجن ، وسمى بذلك لأنه سبب الارتفاع إلى الجنات ؛ إذ يرق الأبرار ويرتفعون من درجة إلى أخرى حيث يشاء الله من رضوانه وقربه ، وقيل : إن (عِلِّيِّينَ) جمع عِلِّيّ عَلى (فِعِّيل) من العلو للمبالغة فى سموه ورفعة شأنه ،وقال آخرون : هى مراتب عالية محفوفة بالجلالة قد عظمها الله وأعلى شأنها .

وقيل : إن لكل من الأبرار والفجار كتاباً خاصًّا بهم تكتب فيه أعمالهم ، ثم يضم كتاب الأبرار إلى كتاب أعظم وأشمل يحويه كما يحوى ويضم كل كتاب من كتب الأتقياء والصلحاء من الثقلين وكتب الملائكة .

أما كتاب الفجار فهو وما على شاكلته من كتب الأشقياء والمردة والشياطين فيوضع ويسجن فى كتاب خسيس حقير فى مكان ضيق مهين وهو سجِّين[(١)] .

١٩ – (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ) :

أى : ما الذى أعلمك يا محمد أى شىء علِّيُّون ؟ وذلك تفخيماً لشأنه وتعظيماً لمنزلته ، إنه فى الدرجة الرفيعة والمنزلة السامية .

---

(١) فهو من ظرفية الكل للجزء ، قال الآلوسى : وقيل : الكتاب على ظاهره، والكلام نظير أن تقول: إن كتاب حساب القرية الفلانية فى الدستور الفلانى ، لما يشتمل على حسابها وحساب أمثالها .

٢٠ - (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) :

أى : إن علِّيِّين كتاب قد رقم وسطر فيه ما أُعد لهم من الثواب ومما يوجب سرورهم وبهجتهم .

٢١ - (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) :

أى : يحضره ويشهده الملائكة المقربون ويحفظونه ، أو يشهدونه عند صعوده كرامة للأبرار المتقين ، أويشهدون بما فيه يوم القيامة تزكية للأبرار وتكريما لهم . أخرج ابن المبارك عن صخر بن حبيب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الملائكةَ يرفعونَ أعمالَ العبدِ من عبادِ اللهِ - تعالى - يستكثرونَهُ ويزكونَهُ حتى يبلغُوا به إلى حيثُ شاء اللهُ - تعالى - من سلطانِه ، فيوحِي الله - تعالى - إليهم : إنكم حفظةٌ على عملِ عبدِى وأنَا رقيبٌ على مافى نفسِه ، إن عبدِى هذا لم يُخلِصْ لى عملَه فاجعلوه فى سجِّين ، ويَصعدونَ بعملِ العبدِ يستقلونَهُ ويستحقرونَهُ حتى يبلغوا بِه إلى حيْث شاء اللهُ - تعالى - من سلطانِهِ فيوحِي اللهُ - تعالى - إليهم : إنكم حفظةٌ على عملِ عبدى وأنا رقيبٌ على ما فى نفسِه ، إن عبدِى هذا أخلص لى عملَه فاجعلُوه فى عِلِّيين » .

وقال الإمام الفخر الرازى : إن العلو والفسحة والضياء والطهارة من علامات السعادة ، والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة ، فلما كان المقصود من وضع كتاب الفجار فى أسفل السافلين وفى أضيق المواضع إذلالَ الفجار وتحقيرَ شأْنهم ، كان المقصود من وضع كتاب الأبرار فى عليين ،وشهادة الملائكة بذلك إجلالَهم وتعظيمَ شأْنهم .

(إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾)

المفـردات :

(نَعِيمٍ) : نعم كثيرة .

(الْأَرَائِكِ) : جمع أريكة ، وهى سرير منجّد فى بيت أو قُبَّة زينت بفاخر الثياب والستور سميت بذلك لأنها قد تتخذ من خشب شجر الأراك ، أو لكونها مكانا للإقامة من قولهم : أرك بالمكان أروكاً : أقام .

(نَضْرَةَ النَّعِيمِ) : بهجة التنعم وماءه ورونقه .

(رَحِيقٍ) الرحيق : الشراب الخالص الذى لا غشّ فيه ، وقيل غير ذلك .

(خِتَامُهُ مِسْكٌ) : خاتمة شربه وآخر طعمه مسك .

(فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) : التنافس ، أصله التغالب فى الشىء النفيس ، كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به .

(وَمِزَاجُهُ) : مزج الشراب خلطه ، والمزاج : ما يمزج به .

(تَسْنِيمٍ) : اسم لعين بعينها فى الجنة .

التفسير

٢٢ – ٢٤ – (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) :

لما عظم الله كتابهم فى الآية المتقدمة ، وأنه فى عليين ويشهده المقربون ، عظم بهذه الآية منزلتهم فبيّن – سبحانه – أنهم فى تنعم وتلذذ ، وتحيطهم السعادة ويغمرهم الفرح من كل جانب ، وأظهر ذلك – جل شأنه – فى أنهم وهم على الأرائك والسرر التى زينت وجمّلت بفاخر الفرش وعظيم الستور يرون وينظرون ما أعده الله لهم ، وهيأه من ألوان النعيم فى الجنة من الحور والولدان ، والقصور والأنهار والأشربة والأطعمة والملابس والمراكب ، أو ينظرون إلى أعدائهم وهم يعذبون فى النار ، أو إذا اشتهوا شيئاً نظروا إليه فيحضرهم ، ويرى الإمام الفخر الرازى : أنهم ينظرون إلى ربهم ، قال : ويتأكد هذا التأويل بما أنه

- تعالى - قال بعد هذه الآية : (تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) والنظر المقرون بالنضرة : هو رؤية الله - تعالى - على ما قال : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » ، ومما يؤكد هذا التأويل أنه يجب الابتداء بذكر أعظم اللذات وما هو إلا رؤية الله - تعالى - اهـ.

ويستبين ويظهر فرحهم وسرورهم - أيضاً - بما يبصره ويشاهده الرائى فى وجوههم من الضحك والاستبشار والبهجة ، قال تعالى : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ »[1] أو أن الله يزيد فى وجوههم من النور والحسن والبياض ما لا يستطيع أن يصفه واصف لتناهيه فى ذلك .

٢٥ - (يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ) :

ومن أمارات وعلامات تنعمهم بأنهم يسقون من خمر لا غش فيها ولا شىء يفسدها أو يغتال عقل شاربها ، أو من شراب خالص نقى ، وقد ختم على قواريره وأوانيه - تكريما له - بالصيانة والحفظ على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان ، وقد خص الله به الأبرار لشرفهم وعلو منزلتهم مع أن فى الجنة أنهارًا من خمر لذة للشاربين ؛ لأن هذا المختوم أشرف وأعلى قدرًا من الخمر الجارى فى الأنهار .

٢٦ - (خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) :

أى : أن الذى يختم به ويسد به رأس قواريره وأوانيه هو المسك ، أو أن المراد من (خِتَامُهُ) هو أن عاقبته وآخره ريح المسك ، فإذا رفع الشارب فمه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك للذاذة وذكاء رائحة مع طيب الطعم ، فالختام آخر كل شىء ومنه ختمت القرآن والأعمال بخواتيمها .

(وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) أى : وفى ذلك الأمر العظيم والثواب الجزيل فليتسابق المتسابقون ، وليرغب ويبادر الراغبون ؛ لأنه النعيم الجليل الأبدى الدائم الذى

(١) الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ من سورة عبس .

يصيبه الفناء ، ولا يناله الكبر والفساد كشراب الدنيا ، والتنافس يكون بفعل الطاعات واستباق الخيرات والانتهاء عن المعاصى والسيئات .

٢٧ - (وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ) :

أى : ومزاج ذلك الرحيق من شراب ينصب وينهل عليهم من علوّ ، والتسنيم : هو أشرف وأطيب شراب فى الجنة ، وقد بين حاله وشأنه فقال - تعالى - :

٢٨ - (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) :

أى : تجرى من علوّ إلى أسفل كما يشعر به الاسم ؛ إذ التسنيم فى اللغة : الارتفاع ، ومنه سنام البعير لعلوه عن بدنه ، وهذه العين يشرب منها ملتذًّا بها أهل جنة عدن ، وهم أفاضل أهل الجنة يشربون منها صرفاً خالصاً لا يخالطها شىء ، ويمزج ويخلط منها كأس أصحاب اليمين فتطيب .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(أَجْرَمُوا) الجرم : قطع الثمرة ، ثم استعمل لكل اكتساب إثم وذنب .

(يَتَغَامَزُونَ) أصل الغمز : الإشارة بالعين أو الحاجب أو اليد طلباً إلى ما فيه نقيصة يشار بها إليه .

(انقَلَبُوا) : انصرفوا ورجعوا .

(فَكِهِينَ) : معجبين بما هم فيه من الشرك ، أو من ذكر المسلمين بالسوء .

(هَلْ ثُوِّبَ) : من الثواب وهو الجزاء ، أى : هل جوزى الكفار وأثيبوا على فعلهم ؟ !

سبب النزول :

روى أن عليًّا – كرم الله وجهه – وجمعا من المسلمين مروا بجمع من كفار مكة فضحكوا منهم واستخفوا بهم ، فنزلت (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ...) إلخ ، قبل أن يصل علىٌّ – كرم الله وجهه – إلى الرسول ﷺ .

التفسير

٢٩–٣٢ – (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ) :

والمراد من الذين أجرموا أكابر المشركين كأبى جهل ، والوليد بن المغيرة ، والعاص ابن وائل السهمى ، وقد حكى الله عنهم أفعالا قبيحة وأعمالا شائنة ، وذلك أنهم كانوا فى الدنيا يستهزئون بالمؤمنين وبدينهم ، ويشيرون إليهم بحواجبهم وأيديهم إمعاناً فى السخرية والتهكم بهم ، ويعيبونهم ، ويقولون فى حق المؤمنين: انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم ويحرمونها لذاتها ويخاطرون فى طلب ثواب لا يتيقنونه ، رمياً للمؤمنين بالسفه والحمق ، وإذا انقلب هؤلاء الكفار ورجعوا من مجالسهم إلى أهلهم انصرفوا معجبين بما هم فيه من الشرك والمعصية والتنعم فى الدنيا ، أو يتفكهون بذكر المسلمين بسوء القول وفحش الحديث ، وهم كلما رأوا المؤمنين أينما كانوا أمعنوا فى سبهم ورميهم بالضلال والبعد عن الطريق السوى لاختيارهم الإسلام ديناً ، وترك عبادة الأصنام ! !

٣٣ – (وَمَآ أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ) :

أى : قال الكفار ما قالوه فى حق المؤمنين وتغامزوا عليهم وعابوهم والشأن والحال أن الكفار لم يبعثهم الله رقباء على المؤمنين يحفظون ويحصون عليهم أعمالهم وأحوالهم ،

ويتفقدون ما يصنعونه من حق أو باطل ، بل إنما أمر الله الكفار أن يقوموا على إصلاح أنفسهم والتبصر والتفكير فيما جاءهم به رسول الله ﷺ من عند ربهم .

٣٤ ، ٣٥ – (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ) :

أى : فاليوم الذى تعرض فيه الأعمال وتنشر الكتب وتحاسب كل نفس بما كسبت وهو يوم القيامة يضحك المؤمنون من الكفار – جزاءً وفاقاً – بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء ، مع ما لحقهم من الحسرة والندامة بعد ما علموا أنهم كانوا فى الدنيا فى ضلال وعمى عندما باعوا الآخرة الباقية بمتاع الدنيا الفانية ، فضلا عن أن المؤمنين قد فرحوا بفوزهم بالنعيم المقيم ، ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد ودخلوا الجنة ، وجلسوا على السرر المرفوعة ينظرون إلى الكفار وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر ، وكيف يعذبون فى النار وهم يصطرخون فيها ويدعون بالويل والثبور ويلعن بعضهم بعضاً .

وقيل : يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم : اخرجوا إليها فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم ، يفعل ذلك بهم مراراً فيضحك المؤمنون منهم .

٣٦ – (هَلْ ثُوِّبَ[1] الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) :

أى : هل جوزى وأثيب هؤلاء الكفار على فعلهم ؟ ! وكأن الله يقول للمؤمنين : هل أثبنا وجازينا هؤلاء على ما كانوا يفعلونه بكم من الهزء والسخرية وذلك بالعذاب المقيم وتمكينكم من الضحك عليهم كما أثبناكم على ما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة بهذا النعيم الجزيل الدائم والجزاء العظيم ؟ والثواب – وإن كان يستعمل فى المكافأة بالشر والخير إلا أنه هنا يحمل على المجازاة بالخير ، وأطلق على عقاب الكفار تهكماً بهم وسخرية منهم كما فى قوله تعالى : « ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ »[2] .

والآية الكريمة تزيد فى سرور المؤمنين وتدل على كريم منزلتهم وعظيم مكانتهم . والله أعلم .

---

(١) ثوب : من الثوب ، وهو ما يثوب ، أى : يرجع إلى فاعله جزاء ما عمله من خير أو شر .
(٢) سورة الدخان الآية رقم : ٤٩

سـورة الانشقاق

مكيـة وآياتها خمس وعشرون آية

ويقـال لهـا سورة (انشقت)

مناسبتها لمـا قبلها :

قال بعض العلماء فى بيان وجه ترتيب السور الثلاث - الانفطار - المطففين - الانشقاق ما يأتى : جاء فى سورة (الانفطار) التعريف بالحفظة الكاتبين الذين يكتبون أعمال الناس فى قوله تعالى : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ • كِرَاماً كَاتِبِينَ[1] » - وفى السورة التى تليها (سورة المطففين) بيان مقر كتبهم ، فى قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ » « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ »[2] وفى هذه السورة (الانْشِقَاق) عرض هذه الكتب ، وإعطاؤها لأصحابها يوم القيامة فى قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ)[3] إلخ .

هذا ، مع ما اشتملت عليه سورة الانشقاق وما قبلها (سورة المطففين) من ذكر بعض مظاهر يوم القيامة وما يناله المؤمنون من تكريم ، وما يصيب الكافرين من عذاب أليم .

بعض مقاصد السورة :

١ - بُدِئت السورة الكريمة بذكر بعض علامات الساعة وأشراطها ، وخضوع كل ما فى السموات والأرض لأمر الله بتغيير نواميسها وقوانينها ، وعند ذلك يلقى كل إنسان جزاء ماعمل (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) إلى قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ) .

٢ - بينت السورة أن عمل الإنسان فى الدنيا مسجل عليه فى كتاب سيلقاه يوم القيامة ، فمن أخذ هذا الكتاب بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا ، ومن أخذ كتابه وراء ظهره فسوف يتمنى هلاك نفسه لما يلقاه من عذاب شديد ، لأنه كان فى الدنيا لاهياً عن العمل

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الانفطار

(٢) الآيتان ٧ ، ١٨ من سورة المطففين .

(٣) الآية رقم ٧ من سورة الانشقاق .

للآخرة ظانًّا أنه لن يرجع إلى ربه فيحاسبه : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) إلى قوله تعالى : (بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا) .

٣ - ثم أقسم - سبحانه - ببعض الآيات الكونية التى تشهد بقدرته وتدعو إلى الإيمان به والتصديق باليوم الآخر وبما يكون فيه من أهوال : (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) إلى قوله تعالى : (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ) .

٤ - ثم بيّن - جل جلاله - أنه مع ما ذكر من آيات وأدلة بينات فى هذه السورة وفى غيرها من السور : فالكافرون يكذبون بالقرآن ولا يؤمنون به (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) إلى قوله : (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ) .

٥ - وختمت السورة بتهديد الكفار بأن الله عليم بما يضمرون وقد أعدّ لهم العذاب الأليم ، كما أعد للمؤمنين الطائعين الأجر الدائم الذى لا ينقطع (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) إلى قوله تعالى : (لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾)

المفــــردات :

(انشَقَّتْ) : انصدعت ، وذلك عند قيام الساعة .

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا) : استمعت له وانقادت ، من قولهم : أَذِن له ؛ أى : استمع وأطاع .

(وَحُقَّتْ) : انقادت وهى جديرة بالانقياد .

(مُدَّتْ) زيدت سعةً وذلك بِدَكِّ جِبَالِهَا وإزالة آكامها .

(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا) : رمت ما فى جوفها .

(وَتَخَلَّتْ) : وَخَلَتْ عَمَّا فِيها غاية الخلو .

(إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ) أى : إنَّك مجتهد جَادٌّ فى عملك إلى لقاء ربك وهو الموت وما بعده ، والكدح كما قال الزمخشرى والآلوسى : جهد النفس فى العمل والكد فيه حتى يؤثر ذلك فى النفس ، من كَدَحَ جلدَه : إذا خدشه .

(فَمُلَاقِيهِ) أى : فملاقى جزاء عملك لامحالة .

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) أى : وأما مَنْ يُعطاه ويؤْتاه بشماله من وراء ظهره وهو [illegible] .

(يَدْعُو ثُبُورًا) : ينادى ويقول : ياثبوراه ، والثبور : الهلاك .

(ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ) : ظن أن لن يرجع إلى ربه فيحاسبه - يقال : لايحور ولا يحول ، أى : لا يرجع ولا يتغير قال :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رَمَادًا بعد إذ هو ساطع

أى : يرجع رمادًا .

وعن ابن عباس : ماكنت أدرى معنى (يحور) حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها : حورى ، أى : ارجعى . ذكره الكشاف .

التفسير

١ - (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) :

أى : إذا السماء انصدعت ، قيل : تنشق لهول يوم القيامة لقوله تعالى : « وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ »[1] قال الزمخشرى : أضمر جواب (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) وما عطف عليه ، ولم يذكره ليذهب السامع فى تقديره كل مذهب ، وفى هذا من التهويل ما فيه ، وقيل : جوابها مادل عليه قوله تعالى : (فَمُلَاقِيهِ) أى : إذا السماء انشقت لاقى الإنسان جزاء عمله وكدحه .

(١) سورة الحاقة ، الآية : ١٦

٢ ـ (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) :

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا) أى : واستمعت السماء لربها واستجابت له ، وأطاعت أمره فيما أمرها الله به من الانشقاق وذلك يوم القيامة (وَحُقَّتْ) أى : وحق لها أن تطيع أمره وتنزل على إرادته وحكمه ؛ لأنه العزيز الذى لا يُمَانع ولا يغالب قد قهر كل شىء وذل له لأنه القادر الحقيقى .

٣ ـ (وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ) :

قال الضَّحاك : مُدّت الأرض ، أى : بُسطت بِانْدِكَاكِ جبالها وآكامها وتسويتها فصارت قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمْتاً .

وقال بعضهم : مُدَّت أى : زيدت سعة وبسطة ، من مده بمعنى أمده ، أى : زاده .

أخرج الحاكم بسند جيد عن جابر ، عن النبى ﷺ أنه قال : « تُمد الأرضُ يومَ القيامةِ مَدَّ الأديمِ ، ثم لا يكونُ لابن آدمَ منها إلا موضع قدميْه » .

٤ ـ (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) :

(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا) أى : ولفظت ما فى جوفها ورمت ما فى بطنها من كنوز وموتى .

(وَتَخَلَّتْ) أى : وتكلفت فى الخلو أقصى جهدها حتى لم يبق شىء فى بطنها .

وقيل : تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها وأحيائها .

٥ ـ (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) :

أى : وانقادت الأرض لربها وأطاعته ونزلت على حكمه فى زيادة سعتها ، وإلقاء ما فيها وتَخَلِّيها عنه ، وحقيق وجدير بها ذلك ! !

وإذا حدث كل ما تقدم ـ وذلك يوم القيامة ـ لقى كل إنسان جزاء عمله .

٦ ـ (يَٓا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ) :

أى : يا أيها الإنسان إنك ساع إلى ربك سعياً جادًا ، وعامل عملا شاقًا صعباً (فَمُلَاقِيهِ)

أى : فإنك ستلقى جزاء ما عملت من خير أو شر ، ويشهد لذلك ما روى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قال جبريلُ : يا محمدُ – عِشْ ماشئت فإنك مَيِّت ، وأحبِبْ منَ شئتَ فإنك مفارقُه ، واعمَلْ ما شئتَ فإنكَ ملاقِيه » .

ومن الناس من يعيد الضمير وهو الهاء فى (فملاقيه) على الرب فى قوله تعالى : (رَبِّكَ) أى : فملاق ربك ، ومعناه : فيجازيك على عملك ويكافئك على سعيك .

قال الآلوسى : والمراد بالإنسان الجنس ، كما يؤذن به التقسيم فى قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) ، (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) إلخ .

وقال مقاتل : المراد به : الأسود بن هلال المخزومى ؛ جادل أخاه أبا سلمة فى أمر البعث ، فقال أبو سلمة : والذى خلقك لتركبن الطبقة ، ولتوافين العقبة ، قال الأسود : فأين الأرض والسماء وما حال الناس ؟ ! وكأن مقاتلا أراد أنها نزلت فيه أولاً . وقيل : المراد أبىُّ ابن خلف؛ كان يكدح فى طلب الدنيا وإيذاء الرسول ﷺ والإصرار على الكفر .

٧ ، ٨ ـ (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ● فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيرًا) :

أى : فأما من أعطى كتاب عمله بيمينه – وهو المؤمن – فسوف يحاسب حساباً يسيرا ، والحساب اليسير : السهل الذى لا مناقشة فيه كما قيل ، وفسره ﷺ بالْعَرْض ، وبالنَّظَر فى الكتاب مع التجاوز ، فقد أخرج الشيخان والترمذى وأبو داود عن عائشة أن النبى ﷺ : قال : « ليس أحدٌ يحاسَبُ إلَّا هلَك » قلت : يا رسول الله – جعلنى الله فداءك – أليس الله تعالى يقول : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ● فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيرًا) ؟ ! قال : « ذلك العرض ، يعرضون ، ومَن نوقش الحسابَ هلك » .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والحاكم وصححه عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : « اللهمَّ حاسِبنى حساباً يَسيرًا » فلما انصرف

ـ عليه الصلاة والسلام ـ قلت : يا رسول الله : ما الحساب اليسير ؟ قال : « أن ينظرَ فى كتابِه فيتجاوز له عنه » .

٩ ـ (وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا) :

المعنى : ويرجع إلى عشيرته المؤمنين فرحاً مبتهجاً بحاله قائلا : « هَآؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَابِيَهْ »[1] وقيل : يرجع إلى فريق المؤمنين مطلقاً وإن لم يكونوا عشيرته ؛ إذ كل المؤمنين أهل للمؤمن من جهة الاشتراك فى الإيمان .

١٠ ـ (وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ) :

أى : وأما من أعطى كتابه بشماله من وراء ظهره ـ وهو الكافر ـ قيل : تُغَلُّ يمناه إلى عنقه ، وتجعل شماله وراء ظهره ، فَيُؤْتَى كتابه بشماله ، وروى أن شماله تدخل فى صدره حتى تخرج من وراء ظهره فيؤتى كتابه بها ، وإذا كان هذا وهو قوله تعالى :(وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) واردًا فى الكفار ، وما قبله وهو قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) واردًا فى المؤمنين المتقين ، فلا تعرض هنا للعصاة من المؤمنين ، قال الآلوسى : لا بُعْدَ فى إدخال العصاة من المؤمنين فى أهل اليمين لأنهم يُعْطون كتبهم باليمين بعد الخروج من النار كما اختاره ابن عطية .

وقيل : إن العصاة المؤمنين يعطون كتبهم بشمالهم ، ويختص الكفرة بكونهم يعطون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم . ا هـ : آلوسى مع التلخيص والتصرف .

ولعل السر فى إعطاء الكفار كتبهم من وراء ظهورهم لأن من يُعْطُونَهم كتبهم من الملائكة لا يُطيقون مُشَاهدة وجوههم لشدة بشاعتها ، أو لعظم بغضهم إياهم ، أو لأنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، فأخذوا كتبهم كذلك على هذه الصورة تحقيرًا لهم وامتهاناً لشأنهم .

١١ ، ١٢ ـ (فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا) :

(فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا) أى : فسوف يدعو الكافر ويطلب ثبورًا ويناديه ويقول :

(١) الحاقة من الآية رقم ١٩

يا ثبوراه تعَالَ فهذا أوانك ، والثُّبُور : الهلاك والخسران والويل ، وهو اسم جامع لأنواع المكاره ، والمعنى : أنه يتمنى موته وهلاك نفسه .

(وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا) : ويدخل جهنم يحترق بنارها ، أو يقاسى شدة حرها ولهيبها .

١٣ - (إِنَّهُ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِ مَسْرُورًا) :

أى : إن الكافر الذى يدعو الثبور ويصلى السعير إنما استحق ذلك لأنه كان فى الدنيا بين عشيرته وأهله فرحاً بطِراً مترفاً ، لا ينظر فى العواقب كعادة الفُجّار من أهل الدنيا الذين لا يهمهم أمر الآخرة ، ولم يكن متفكرًا فى حاله ومآله كعادة وطبيعة الصلحاء المتقين الذين حكى الله عنهم فقال : « قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ »[1] وهذه الآية استئناف لبيان سبب ما استحقوه من عذاب .

١٤ - (إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ) :

هذه الآية تعليل لسروره فى الدنيا بين أهله وعشيرته .

أى : إن هذا الكافر كان مسرورًا فى الدنيا ولا يبالى بشىء لأنه كان يكذب بالبعث يعتقد أنه لن يرجع إلى الله تعالى ، فلا يعيده ربه بعد موته للحساب ، والحور : الرجوع مطلقاً ، والمراد هنا - كما قال ابن عباس وقتادة وغيرهما - : الرجوع إلى الله للجزاء بقرينة المقام .

١٥ - (بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا[2]) :

المعنى : بلى يحور ويرجع البتة ، لأن الله - عز وجل - الذى خلقه كان به وبأعماله الموجبة للجزاء بصيرًا بحيث لا تخفى عليه - سبحانه - منها خافية ، فلا بد من رجوعه وحسابه ومجازاته .

---

(١) سورة الطور ، الآية : ٢٦

(٢) (بلى) : إيجاب لما بعد النفى فى (لن يحور) و (إن ربه كان به بصيرا) تحقيق وتعليل له .

(فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾)

المفـــردات :

(الشَّفَقُ) الحمرة التي ترى بالأفق بعد غروب الشمس ، وقيل : البياض الذي يلى تلك الحمرة .

(وَمَا وَسَقَ) : وما جمعه الليل وستره وضمه إليه من الدواب وغيرها .

(اتَّسَقَ) : اجتمع نوره وتمَّ .

(لَتَرْكَبُنَّ) : لتلاقن .

(طَبَقًا) : الطبق ما طابق غيره ، ومنه قيل للغطاء : الطبق ، ثم قيل للحال المطابقة لغيرها : طبق .

(عَن) : بمعنى بَعْدَ ، كما فى قولهم : سادوك كابرا عن كابر ، أى : بعد كابر .

(بِمَا يُوعُونَ) أى : بالذى يضمرونه فى صدورهم من الكفر والحسد، أو بما يجمعونه فى صحفهم من أعمال السوء .

(فَبَشِّرْهُمْ) : فأخبرهم .

والتبشير فى المشهور : الإخبار بِسَارٍّ ، والتعبير به هنا للتهكم بهم .

(غَيْرُ مَمْنُونٍ) : غير مقطوع ولا منقوص .

التفسير

١٦ - (فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) :

أى : فأقسم قسماً مؤكداً - كما يشعر بذلك ذكر « لا » - (بِالشَّفَقِ) : وهو الحمرة التى تشاهد فى الأفق بعد الغروب ، وبسقوط الشفق يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العشاء عند عامة العلماء ، إلا ماورد فى بعض الروايات عن أبى حنيفة ، وقيل الشفق : البياض الذى يلى تلك الحمرة ، وبه قال أبو هريرة ، وهو إحدى الروايات عن أبى حنيفة . وصح عن مجاهد أنه قال فى هذه الآية : (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) قال : الشفق : هو النهار كله وإنما حمله على هذا قَرْنُ الشفق بقوله تعالى : (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ) كأنه أقسم بالضياء والظلام .

١٧ - (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ) :

أى : وأقسم على سبيل التأكيد بالليل وما جمعه وضمه وآوى إليه من الدواب وغيرها . وعن مجاهد : ما يكون فيه من خير أو شر ، وقيل : وما ستره وغطى عليه بظلمته .

١٨ - (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ) :

أى : وأقسم قسماً مؤكداً بالقمر إذا اجتمع نوره وتَمَّ وتكامل وصار بدْرًا وذلك - كما قال الزمخشرى - : هى ليلة أربع عشرة .

١٩ - (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ) :

هذا الكلام خطاب لجنس الإنسان المنادَى أولا فى قوله تعالى : (يَآ أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ) إلخ .. باعتبار شموله لجميع أفراد الإنسان ، والمراد بالركوب : الملاقاة ، وبالطبق الحال المطابقة لغيرها ، والمعنى : لتلاقن أيها النَّاس حالا بعد حال ، كل حال مطابقة لغيرها فى الشدة والهول .

وقيل : الطبق : جمع طبقة ، وهى المرتبة ، والمعنى : لتركبن أحوالا بعد أحوال هى طبقات فى الشدة بعضها أعظم من بعض ، وهى الموت وما بعده من مشاهد القيامة وأهوالها .

وفسر بعضهم الأحوال التى يلاقيها النّاس بما يكونون عليه فى الدنيا من كونهم نطفة إلى الموت وما يكونون عليه فى الآخرة من البعث إلى حين استقرارهم فى إحدى الدارين الجنة أو النّار .

وأخرج البخارى عن ابن عباس أن الخطاب للنبى ﷺ وعليه يراد : لتركبن أحوالا شريفة بعد أخرى من مراتب القُرْبِ ، أو من مراتب الشدة فى الدنيا باعتبار ما يقاسيه فى تبليغ الرسالة ، أو الكلام عِدَةٌ بالنصر وتبشير بالمعراج ، أى : لتركبن سماء بعد سماء ، واختار ابن كثير هذا القول - وقال : والصواب من التأويل قول من قال : لتركبن يا محمد حالا بعد حال وأمرًا بعد أمر من الشدائد ، والمراد بذلك - وإن كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله - جميع الناس ، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالا - ا هـ : ابن كثير .

٢٠ - (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

الفاء فى قوله تعالى : (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) يجوز أن تكون لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة وأهوالها المشار إليها بقوله تعالى : (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ) أى : إذا كان حالهم يوم القيامة كما أشير إليه فأى شىء يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله وسائر ما يجب الإيمان به بعد ذكر ما يلقاه كل مخالف من الأهوال؟! ويجوز أن يكون لترتيب ما بعدها على ما قبلها من عَظِم شأنه - عليه الصلاة والسلام - المشار إليه بقوله تعالى : (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ) على أن المراد بالمخاطب رسول الله ﷺ أى : إذا كان هذا حاله ﷺ كما أشير إليه فأى شىء يمنعهم من الإيمان به - عليه الصلاة والسلام - ؟ !

٢١ - (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ) :

هذه الآية معطوفة على الآية السابقة ، والمعنى : وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الله

وسمعوا كلامه – وهو القرآن العظيم – لا يستكينون ولا يخضعون بأن يؤمنوا به لإعجازه ، فالمراد بالسجود : الخضوع والاستكانة ، وقيل : المراد به الصلاة ، وقيل : المقصود به سجود التلاوة ، ويكون المراد بما قبله (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ) أى : وفيه آية سجدة . أخرج مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) و (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) .

٢٢ – (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ) :

هذه الآية انتقال عن كونهم لا يسجدون عند قراءة القرآن وسماعهم له إلى أنهم يكذبون به صريحاً ؟ وقيل المعنى : بل هؤلاء من شخصيتهم التكذيب بالبعث وغيره ، والعناد والمخالفة للحق تعاليا عنه وتكبرا .

٢٣ – (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) :

أى : والله أعلم بالذى يضمرونه فى صدورهم من الكفر والحسد والبغضاء والبغى ، أو : والله أعلم بما يجمعونه فى صحفهم من أعمال السوء فيجازيهم عليها ، وقال بعضهم : المعنى – والله أعلم بما يضمرون فى أنفسهم من أدلة صدق القرآن فيكون المراد المبالغة فى عنادهم وتكذيبهم بالقرآن مع علمهم بصدقه .

٢٤ – (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) :

الفاء فى قوله تعالى : (فَبَشِّرْهُمْ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والمعنى : فبشر الكفار يا محمد بأن الله – عز وجل – قد أعدّ لهم عذاباً مؤلماً موجعاً لتكذيبهم بالقرآن ، أو لعلمه – سبحانه وتعالى – بما يضمرون فى أنفسهم من الشرور والآثام .

والتعبير بالتبشير فى هذا المقام مع أنه فى المشهور يكون للإخبار بأمر سارٍّ – للتهكم والسخرية بهم .

٢٥ - (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ):

لكن الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم لهم أجر فى الآخرة غير ممنون ، قال ابن عباس : أى : غير منقوص ، وقيل : غير مقطوع عنهم كما قال تعالى : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ »[1] .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ١٠٨

سـورة البروج

وهى مكية ، وآياتها ثنتان وعشرون آية ، نزلت بعد الشمس

مناسبتها لمـا قبلهـا :

اشتمالها - كالسورة التى قبلها (سورة الانشقاق) على وعد المؤمنين . ووعيد الكافرين . والتنويه بشأن القرآن ورفعة شأنه .

كما اشتملت أيضاً - كالسورة التى قبلها - على بيان أن العاقبة والغلبة والظفر للمؤمنين الصابرين مهما لاقوا من عذاب وأهوال ، وأن الهزيمة والخيبة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة للكافرين المكذبين مهما اشتد بطشهم وعظم سلطانهم .

هذه السورة عظة وتحذير لكفار قريش وغيرهم ، وتثبيت لمن يعذبون من المؤمنين .

اهم مقاصـد السورة :

١ - أقسم الله - سبحانه - فى أول السورة ببعض مظاهر قدرته على أن الكافرين الذين يؤذون المؤمنين ليردوهم عن دينهم مطرودون كما طرد من سلك مسلكهم ممن سبقهم : (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) إلى قوله تعالى : (وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ) .

٢ - بينت السورة أن الصامدين من المؤمنين الذين عُذبوا ما كان ذنبهم إلا إيمانهم بالله ، وذكرت الوعيد للكافرين ، والوعد للمؤمنين الصابرين : (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) إلى قوله تعالى : (ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) .

٣ - ذكرت السورة بعض صفاته - تعالى - كقوّته وبطشه بالجبابرة ، وبالجموع الطاغية من قوم فرعون وثمود وغيرهم من المكذبين ، وأن قوم الرسول يكذبونه والله من ورائهم محيط : (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) إلى قوله تعالى : (وَاللهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ) .

٤ - وخُتِمت السورة ببيان عظمة القرآن وأنه فى لوح محفوظ لا تصل إليه يدٌ بتحريف ، ولا قوة بتغيير : (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(الْبُرُوجِ) : منازل الشمس والقمر وسائر الكواكب .

(الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) : يوم القيامة .

(وَشَاهِدٍ) : ومن يشهد يوم القيامة ويحضره من الخلائق المبعوثين فيه .

(وَمَشْهُودٍ) : وما يحضر ويشاهد فى ذلك اليوم من العجائب .

(قُتِلَ) : لُعِن أشد اللعن .

(الْأُخْدُودِ) : الشق المستطيل فى الأرض ، ويجمع على أخاديد .

(إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ) : إذ هم على حَافَّةِ النار وحولها قعود .

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ) : وما عابوا عليهم وأنكروا منهم – وفى مفردات الراغب : يقال : نقمت الشىء : إذا أنكرته بلسانك أو بعقوبة .

التفسير

١ - (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) :

أقسم الله - تعالى - بالسماء ذات البروج ، أى : ذات المنازل التى تنزلها الكواكب من شمس وقمر وغيرهما فى أثناء سيرهما ، وقيل : البروج : الكواكب العظام .

٢ - (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) :

وأقسم - سبحانه - باليوم الموعود ، أى : الموعود به للحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة باتفاق المفسرين ، وقيل : لعله اليوم الذى يخرج الناس فيه من قبورهم ، فقد قال - سبحانه - : « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ »[١] .

أو يوم طى السماء كطى السجل للكتب ، وقيل : يمكن أن يراد به يوم شفاعة النبى ﷺ على ما أشار إليه قوله تعالى : « عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا »[٢] . ولايخفى أن جميع ذلك داخل فى يوم القيامة .

٣ - (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) :

وأقسم - سبحانه وتعالى - بشاهد ، أى : بمن يشهد ذلك اليوم - وهو يوم القيامة - ويحضره من الخلائق المبعوثين فيه . (وَمَشْهُودٍ) أى : وبما يحضر فيه من الأهوال والعجائب ، وهكذا يقسم الله - عز وجل - بيوم القيامة وما يكون فيه ؛ تعظيماً لذلك اليوم وإرهاباً لمنكريه .

أخرج الترمذى وجماعة عن أبى هريرة مرفوعاً : « الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة » وعن ابن عباس : الشاهد : محمد - عليه الصلاة والسلام - مستدلا بقوله

---

(١) سورة المعارج ، الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) سورة الإسراء ، من الآية ٧٩

تعالى : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا »[1] (والمشهود) يوم القيامة مستدلا بقوله تعالى : « ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ».[2] قال الزمخشرى : قد اضطربت أقوال المفسرين فى المراد بهما .

وقال الآلوسى : جميع الأقوال فى ذلك – على ما وقفت عليه – نحو من ثلاثين قولا . واختار القول الأول وهو أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة .

٤ – (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) :

هذه الجملة جواب القسم أو دليله . كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء : بالسماء ذات البروج ، وباليوم الموعود وبشاهد ومشهود أن كفار قريش المعذبين للمؤمنين لَمَلْعُونُونَ كما لعن أصحاب الأخدود الذين ألقوا المؤمنين والمؤمنات فيه .

وذلك أن السورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من مؤمنى الأمم السابقة – من التعذيب على الإيمان وإلحاق أنواع الأذى بهم ، ولكنهم صبروا . وذلك لكى يقتدوا بهم ، ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، وليعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المُعَذِّبِين المُحْرِقين بالنار ، وهم ملعونون مطرودون من رحمة الله ، فالقتل هنا عبارة عن أشد اللعن والطرد والسخط .

وقال بعضهم : الأظهر أن يقدر : إنهم لمقتولون – أى : كفار قريش – كما قتل أصحاب الأخدود ، فيكون وَعْدًا له ﷺ بقتل الكفرة المتمردين – لإعلاء دينه – ويكون معجزة بقتل رءوسهم فى غزوة بدر .

قال ابن كثير : (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) : أى ؛ لعن أصحاب الأخدود – وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله – عز وجل – فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم ، فحفروا لهم فى الأرض أخدودًا وأجّجوا فيه نارًا وأعدوا لها وقودًا يسعرونها به ، ثم أرادوهم على الكفر فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها .

---

(١) سورة النساء ، من الآية : ٤١

(٢) سورة هود ، من الآية : ١٠٣

٥ - (النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ) :

(النَّارِ) : بدل اشتمال من الأُخدود ، أى : أصحاب النار (ذَاتِ الْوَقُودِ)، وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس ، وهى تلك النار التى أضرمها الكفار وسعروها لعذاب المؤمنين .

٦ - (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ) :

أى : لُعِن الكفار الذين صنعوا الأخاديد حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها فى مكان قريب منها مشرفين عليها من حافات الأُخدود وجوانبه .

و(عليها) : بمعنى (حولها) كقول الأعشى :

وبات على النار الندى والمحلق .

٧ - (وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ) :

(وَهُمْ) أى : الكفار على ما يفعلون بالمؤمنين من تعذيبهم بالإلقاء فى النار إن لم يرجعوا عن دينهم (شُهُودٌ) أى : حضور لا يَرِقُّونَ لهم ؛ لشدة قسوة قلوبهم ، وقيل : (شُهُودٌ) أى : يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأن أحدًا لم يقصر فى أداء ما أمر به ، أو يشهدون على أنفسهم بذلك يوم القيامة : يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم .

٨ - (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) :

أى : وما أنكروا منهم وما عابوا عليهم وما كان ذنبهم عندهم إلا إيمانهم بالله ، إنْ عُدَّ ذلك ذنباً وجرماً يستحق الإنسان عليه العقاب والمؤاخذة ، وهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، على منهاج قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

(الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) : ذكر - سبحانه - الأوصاف التى يستحق الله بها أن يُؤمَن به وأن يُعْبَد ، وهو كونه عزيزا غالباً قادرًا يُخْشَى عقابه ، حميدًا مُنْعِماً يجب له الحمد على نعمته ويُرْجَى ثوابه .

٩ - (الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) :

الله الذى له - وحده - ملك السمٰوات والأرض ، فكل ما فيهما تحق عليه عبادته والخشوع له - سبحانه - وما نقموه منهم هو الحق الذى لاينقمه إلا مبطل منغمس فى الغى ، وأن الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب لا يَعْدِلُه عذاب .

(وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) : هذا وعد للمؤمنين ، ووعيد لمعذبيهم ، فإن علم الله - جل شأنه - الجامع لصفات الجلال والجمال شامل ومحيط بجميع الأشياء التى من جملتها أعمال الفريقين ، وسيجازى كلا منهما على عمله .

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) :

المعنى : إن الذين ابتلوا المؤمنين والمؤمنات فى دينهم بالأذى والإحراق بالنار لِيرتدوا عن دينهم ثم لم يرجع هؤلاء عن فتنة المؤمنين وتعذيبهم ، ولم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا فلهم فى الآخرة عذاب جهنم جزاء كفرهم ، ولهم عذاب الحريق جزاء إحراقهم المؤمنين .

قيل : يجوز أن يكون المراد بـ (الَّذِينَ فَتَنُوا) أصحاب الأُخدود خاصة ، وبـ (الَّذِين آمَنُوا) المطروحين فى الأُخدود .

وقال بعضهم ، المراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات : كفار قريش الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات بكل أنواع العذاب كعمار وياسر وبلال ، والأصوب العموم ، ليشمل كل من صد عن سبيل الله وعذب المؤمنين ليرجعوا عن دينهم .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾)

المفــردات :

(بَطْشَ رَبِّكَ) : البطش : الأخذ بالعنف ، فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم .

(هُوَ يُبْدِئُ) : إنه وحده يخلق ابتداء بقوته .

(وَيُعِيدُ) : يبعث الموتى يوم القيامة بقدرته .

(الْوَدُودُ) : المحب كثيرًا لمن أطاعه .

(ذُو الْعَرْشِ) : صاحب العرش وخالقه ومالكه .

(الْمَجِيدُ) : العظيم المستحق لكل صفات العلو والكمال .

(محِيطٌ) : عالم بأحوالهم وقادر عليهم وهم لا يعجزونه .

التفسير

١١ - (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) :

المعنى : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار لجمعهم بين الإيمان والعمل الصالح ، وذلك النعيم الذى جُوزُوا وكُوفِئوا به من دخولهم الجنات وتمتعهم بما فيها هو الفوز الكبير الذى يصغر عنده الفوز بالدنيا وما فيها من الْمُتَع والرغائب ، وكيف لا وقد ظفروا بكل خير ونجوا وسلموا من كل شر !

١٢ - (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) :

استئناف خوطب به النبى ﷺ إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً منه ؛ كما ينبئ عنه ذكر الرب مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - أى : إن أخذ ربك الجبابرة والظَّلَمَةَ بالعذاب بالغ الغاية فى الشدة والقوة فى العنف والبطش ؛ لأنه بطش ربك القادر على كل شىء .

١٣ - (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ) :

أى : إنه - عز وجل وحده - هو الذى يُبْدِئُ الخلق بالإنشاء ، وهو - سبحانه - يعيده بإحيائه يوم القيامة للحشر والجزاء ؛ ودل باقتداره على البدء والإعادة على شدة بطشه . أو يبدئُ البطش بالكفرة فى الدنيا ، ثم يعيده فى الآخرة .

١٤ - (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) :

وهو - سبحانه - الغفور للذنوب من يشاء من عباده المؤمنين ، وقيل : لمن تاب إليه وأطاع أمره . (الْوَدُودُ) : أى ، كثير المحبة لمن أطاعه وأحبه ، وعن ابن عباس : المتودد إلى عباده بالمغفرة .

١٥ - (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ) :

(ذُو الْعَرْشِ) أى : صاحب العرش ، والمراد : مالكه أو خالقه ، والعرش أعظم المخلوقات ،

وجاء فى الأخبار عن عظمه ما يبهر العقول ، وقال القفال : ذو العرش : ذو الملك والسلطان.
(الْمَجِيدُ) : العظيم فى ذاته وصفاته – سبحانه وتعالى– فإنه – جلّ شأنه – واجب الوجود ، تام القدرة ، كامل الحكمة .

١٦ – (فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) :

لأن ما يريد ويفعل فى غاية الكثرة ، وفى التنكير من التفخيم مالا يخفى ، أى : أنه – سبحانه – لايعجزه شئ ، ولا معقب لحكمه ، ولايسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته كما روى عن أبى بكر الصديق أنه قيل له وهو فى مرض الموت : هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم ، قالوا فما قال لك ؟ قال : قال لى : إنى فَعَّال لما أريد – يريد أن الطبيب على الحقيقة هو الله – فهو سبحانه فعال لما يريد ؛ لايتخلف عن قدرته مراد .

١٧ – (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ) :

تقرير لكونه – سبحانه وتعالى – فعالا لما يريد ، وكذلك لشدة بطشه بالظَّلَمَةِ والعصاة والكفرة الْعُتاة ، وتسلية له ﷺ بالإشعار بأنه سيصيب كفار قومه ما أصاب الجنود ، والمراد بالجنود هنا : الأقوام والجماعات الذين تجندوا على أنبياء الله واجتمعوا على أذاهم .

والمعنى : هل بلغك يا محمد ما أحلّ الله بهم من البأس وأنزل عليهم من النقمة التى لم يردّها عنهم رَادٌّ ولم يدفعها عنهم دافع ؟ ! وهذا تقرير لقوله تعالى : (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) أى : إذا أخذ الظالم أخذه أخذًا أليماً شديدًا : أخذ عزيز مقتدر ، عن عمر ابن ميمون قال : مر النبى ﷺ على امرأة تقرأ : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ) فقال : « نَعَمْ جَاءَنى » .

١٨ – (فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ) :

قوم فرعون وثمود (بدل من الجنود) والمراد بحديثهم : ما صدر عنهم من التمادى فى الكفر والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال .

والمعنى : قد أتاك حديث قوم فرعون وثمود ، وعرفت ما فعلوا وما فُعِلَ بهم ، وما حل بهم من جزاء تماديهم فى الباطل ؛ فَذَكِّر قومك بأيام الله وأنذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب

أمثالهم ممن خرجوا عن طاعته ، وحاربوا رسله ، وكذبوا بأنبيائه ، وهذا تنبيه لمن كفر بالنبي ﷺ وكذّب بالقرآن ليتعظ .

١٩ - (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ) :

أى : بل الذين كفروا من قومك فى تكذيب ، وهذا إضراب انتقالى عن مماثلة كفار قريش لمن سبقهم من الأمم المكذبة ، وبيان لكونهم أشد منهم فى الكفر والطغيان كما ينبئ عنه العدول عن (يكذبون) إلى قوله تعالى : (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ) المفيد لإحاطة التكذيب بهم من كل جانب ، مع ما فى تنكير (تكذيب) من الدلالة على تعظيمه وتهويله ، فكأنه قيل : ليس قومك مثلهم ، بل هم أشد منهم فإنهم غرقى مغمورون فى تكذيب عظيم للقرآن الكريم ، فهم أدنى منهم فى استحقاق العذاب .

٢٠ - (وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ) :

أى : والله - سبحانه وتعالى - متمكن منهم ، عالم بهم ، قادر عليهم ، قاهر لهم لا يفوتونه ولايعجزونه ، والإحاطة بهم من ورائهم قيل : لأنهم لايفوتونه كما لايفوت الشئ من الشئ المحيط به ، فالكلام تصوير لعدم نجاتهم من بأس الله .

٢١ - (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ) :

هذا رد لكفرهم ، وإبطال لتكذيبهم ، وتحقيق للحق ، أى : بل هذا الذى جئتهم فكذبوا به كتاب شريف عالى المنزلة فى الكتب السماوية فى نظمه وإعجازه ، فلا يحق تكذيبه والكفر به .

٢٢ - (فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) :

المعنى : أن القرآن محفوظ بعد التنزيل من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقص ، كما قال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[1] وقيل : مكتوب ومحفوظ فى ذلك اللوح عن وصول الشياطين إليه ، واللوح المحفوظ نحن نؤمن به ، ولايلزمنا البحث عن ماهيته وحقيقته وكيفية كتابته ونحو ذلك . والله أعلم .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩

سورة الطارق

وهى مكية ، وآياتها سبع عشرة آية ، نزلت بعد سورة البلد

صلتها بما قبلها :

لما ذكر - سبحانه وتعالى - تكذيب الكفار للقرآن فى السورة السابقة (سورة البروج) فى قوله تعالى : « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ »[1] نبّه - سبحانه وتعالى - فى هذه السورة : (سورة الطارق) على نشأة الإنسان وبدء خلقه ، ثم ذكر قدر هذا القرآن وعلو شأنه الذى كذّب به هذا الإنسان الضعيف .

اهم مقاصد السورة :

١ - بُدئت السورة الكريمة بالقسم بالسماء وماحوت من نجم وكوكب على أن كلّ نفس عليها رقيب يحصى أعمالها (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) إلى قوله تعالى : (إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) .

٢ - دعت السورة الإنسان أن يفكر وينظر فى نشأته ومم خلق ؟ ليعلم أن الذى أنشأه بقدرته قوى قادر على إعادته بعد موته للحساب (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) إلى قوله تعالى : (فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) .

٣ - فى السورة قسم آخر بالسماء ذات المطر ، والأرض التى تنشق عن النبات على أن القرآن فاصل بين الحق والباطل وهو خير كله ، ومن حقه - وقد وصفه الله بهذا - أن يكون معظّما يترفع به قارئه وسامعه عن أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح ، ومع ذلك فقد اشتد الكفار فى عداوته وإنكاره والكيد له ، وقد ردّ الله كيدهم بكيد أشد لا يقدرون على دفعه (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) إلى قوله تعالى : (وَأَكِيدُ كَيْدًا) .

٤ - ختمت السورة بطلب إمهال الكافرين حتى يأتيهم العذاب : (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) .

---

(١) سورة البروج الآية : ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(الطَّارِقِ) : كل آت ليلا ، ومنه النجوم ؛ لطلوعها ليلا ، والطارق فى الأصل : اسم فاعل من الطَّرق بمعنى الضرب بوقع وشدة يسمع لها صوت .

(النَّجْمُ الثَّاقِبُ) : النجم المضيء .

(حَافِظٌ) : رقيب ومحاسب .

(دَافِقٍ) : مدفوق ومصبوب بدفع وسرعة

(يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ) الصلب : الظهر .

(وَالتَّرَائِبِ) : جمع تَرِيبة ، وهى عظام الصدر أو الأطراف .

(رَجْعِهِ) : إعادة خلقه بعد فنائه وموته .

(تُبْلَى السَّرَائِرُ) : تكشف وتظهر مكنونات القلوب ، وأصل الابتلاء : الاختبار .

التفسير

١ – ﴿ وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ ﴾ :

أقسم الله – سبحانه وتعالى – بالسماء وما جعل فيها من الكواكب التى تضىء عند طلوعها ليلا ، وتختفى نهارًا .

٢ – ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ :

هذا الأسلوب للتنويه بشأن الطارق بعد تفخيمه وتعظيمه ، بالإقسام به ، وتنبيه على أن رفعة قدره وعلو شأنه مرتبة لا ينالها ولا يصل إلى معرفتها عقول الخلق ؛ فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم .

والمعنى : وأى شىء أعلمك بالطارق وما حقيقة هذا الكوكب ؟

٣ – ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ :

أى : النجم المضىء كأنه يثقب الظلام بضوئه وينفذ فيه ، وروى لأنه يدرأ الظلام ، أى : يدفعه ، وقال الفراء : الثاقب : المرتفع .

٤ – ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ :

المعنى : ما كل نفس إلا عليها حافظ ، أى : مهيمن ورقيب وهو الله – سبحانه وتعالى – كما فى قوله تعالى : « وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا »[1] .

وقيل : معنى (حَافِظٌ) : من يحفظ عملها من الملائكة ويحصى عليها ما تكسب من خير أو شر ، كما فى قوله تعالى : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ »[2] ، وروى ذلك عن ابن سيرين وقتادة .

---

(١) سورة الأحزاب ، من الآية : ٥٢

(٢) سورة الانفطار ، الآيتان : ١٠ ، ١١

وقيل : (حَافِظٌ) أى : عقل يرشده إلى مصالحه ويكفه عمَّا يضره .

والجملة جواب القسم .

٥ - (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) :

لَمَّا أثبت - سبحانه - أن على الإنسان حافظًا ورقيبًا منه - تعالى - أو من ملائكته ، حثه على النظر فى نشأته الأُولى حتى يعلم أن من أنشأهُ على هذه النشأة قادر على إعادته وجزائه ، فليعمل ليوم الإعادة والجزاء ، وليُرْضِ ربه ولا يُملِ على حفظته إلا مايسره فى آخرته وعاقبة أمره .

وأما على تقدير أن المراد بالحافظ العقل ، فلأنه لَمَّا أثبت - سبحانه - أن للإنسان عقلًا يرشده إلى مصالحه ويكفه عن مضاره ، حثه على استعماله فيما ينفعه ، وعدم تعطيله وإلغائه ، كأنه قيل : فلينظر بعقله وليتفكر به فى مبدأ خلقه حتى تتضح له قدرة واهبه - سبحانه - وأنه إذا قدر على إنشائه من مواد ليس فيها حياة ظاهرة فهو - سبحانه - على إعادته أقدر وأقدر ، فليعمل بما يُسَر به حين الإعادة والرجوع إلى مولاه .

٦ - (خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ) :

أى : خُلق الإنسان من ماء دافق مصبوب بدفع وسرعة فى الرحم ، والمراد بالماء الدافق : المنى الذى يحمل الحيوانات المنوية التى تلقح بويضة المرأة ويتكون الجنين .

٧ - (يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَآئِبِ) :

أى : يخرج هذا الماء (مِن بَيْنِ الصُّلْبِ) وهو الظهر .

(وَالتَّرَآئِبِ) : وهى عظام الصدر . وقال الآلوسى : لو جعل ما بين الصلب والترائب كناية عن البدن كله لم يبعد .

ولعلماء العصر كلام فى ذلك يمكن الرجوع إليه لمعرفة الاجتهادات القديمة والحديثة ولا يجوز تفسير القرآن بما لا يصل إلى حد العلم القطعى ، مع الدعوة إلى الفكر والنظر ومداومة البحث الذى قد يوصل إلى الحقيقة التى لا تقبل الشك وذلك ممكن غير مستحيل . قال تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »[1] .

٨ - (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) :

أى : إن الله - سبحانه وتعالى - الذى خلق الإنسان مما ذكر لقادر على إعادته بعد موته ، وبعثه بعد هلاكه ، لا يصعب عليه ذلك ولا يعجز عنه سبحانه .

٩ - (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) :

فى يوم القيامة تبلى السرائر ، أى : تظهر وتبدو ، ويصير السر علانية والمكنون ، مشهودًا ، سواء منه ما أُسِرَّ فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، وما أُخفى من الأعمال ، حيث يميز بين ما طاب منها وما خبث .

١٠ - (فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) :

المعنى : فما للإنسان المنكر للبعث من قوة فى نفسه يمتنع بها من العذاب ، ولا ناصر يمنعه ويحميه فيدفع العذاب عنه .

---

(١) سورة فصلت من الآية : ٥٣ .

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾)

المفردات :

(ذَاتِ الرَّجْعِ) : ذات المطر لرجوعه كل حين ، أو لرجوعه إلى المصدر الذى تبخر منه وتكاثف ونزل ماء .

(ذَاتِ الصَّدْعِ) : ذات الانشقاق عن النبات .

(إِنَّهُ) أى : إن القرآن .

(لَقَوْلٌ فَصْلٌ) : لقول فاصل بين الحق والباطل ، كما قيل له : فرقان .

(وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) أى : وما القرآن باللعب والباطل .

(يَكِيدُونَ كَيْدًا) : يمكرون مكرًا بالغ الغاية لصد الناس عن القرآن .

(وَأَكِيدُ كَيْدًا) : أجازيهم على فعلهم بالاستدراج لهم .

التفسير

١١ – (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) :

أقسم – سبحانه وتعالى – بالسماء التى ينزل منها المطر ، وسمى المطر رجعًا لأن العرب كانوا يرون أن السحاب يحمل بخار الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض ، أو سموا

المطر بذلك تفاؤلا ليرجع ، أو لأن الله يرجعه بين الفينة والفينة ليشرب الناس ويسقوا زرعهم ودوابهم ، ولولا ذلك لهلك الجميع ، وعن مجاهد : تفسير السماء بالسحاب ، والرجع بالمطر ، وقيل : الرجع : الملائكة – عليهم السلام – سُمُّوا بذلك لرجوعهم بأعمال العباد .

١٢ – (وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) :

وأقسم – سبحانه – بالأرض ذات الصدع ، أى : ذات الانشقاق عن النبات الذى يخرج منها .

١٣ – (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ) :

المعنى : إن القرآن الذى أُنزل على الرسول لقول فاصل بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، قد بلغ الغاية فى ذلك حتى كأنه نفس الفصل .

١٤ – (وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) :

أى : ليس فى القرآن شائبة لعب ولا باطل ، بل كله جد محض ، فمن حقه أن يهتدى به الغُوَاة ، وتخضع له رقاب العُتَاة ، ومن الواجب نحو القرآن – وقد وصفه الله بذلك – أن يكون مَهِيبًا فى الصدور ، مُعَظمًا فى القلوب ، ويترفع به قارئه وسامعه أن يُلِم بهزل – أو يتفكه بمزاح ، وأن يلقى ذهنه إلى أن جبار السمٰوات يخاطبه فيأمره وينهاه ، ويقف عند وعده ووعيده ، حتى إنه إن لم يخف من الله ولم يخش عذابه فالأولى به أن يكون جادًّا غير هازل وفى الحكم على القرآن بأنه فصل أخرج الترمذى وغيره عن على – كرم الله وجهه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكونُ فتنةٌ ، قلتُ : فمَا المخرجُ

منها يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : كتابُ اللهِ ، فيه نبأُ مَن قبلكُم ، وخبَرُ ما بعدكُم ، وحُكْمُ ما بينكم ، هو الفصلُ ليسَ بالهزلِ ... » إلخ الحديث .

١٥ – (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا) :

ثم أخبر – سبحانه – عن الكافرين المكذبين بالقرآن الذين يصدون عن سبيل الله وعن الحق فقال : (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ) أى : يمكرون بالناس فى دعوتهم إلى مخالفة القرآن والإعراض عنه ، ويُعْمِلُونَ المكايد فى إبطال أمره وإطفاء نوره ويبذلون جهدًا كبيرًا فى هذا الكيد ، وهم وإن بلغوا الغاية فى كيدهم فقدرتهم ضعيفة ، وقوتهم محدودة .

١٦ – (وَأَكِيدُ كَيْدًا) :

أى أقابل كيدهم بتدبير قوى لا يمكن رده ولا يستطاع دفعه وذلك بمثل إملائهم – واستدراجهم من حيث لا يعلمون ، وانتظار الميقات الذى وقته للبطش بهم والانتقام منهم ، وإعلاء شأن القرآن وانتشار الدين ورفعة قدر الرسول ﷺ .

١٧ – (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا)[1] :

(فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ) أى : فتأنَّ وانتظر الانتقام منهم ، ولا تستعجل به ولا تدع عليهم بالهلاك ، ولا تيأس من عقابهم ، والفاء فى قوله تعالى : (فَمَهِّلِ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى : أن الله هو الذى سيتولى كيدهم ولن يهملهم ، فلا تشغل نفسك بالتصدى والتعرض لمكايدهم ، وذِكْرُ (الْكَافِرِينَ) وعدم الاكتفاء بضميرهم لذمهم ونعتهم بأبى الخبائث وأساس جميع الشرور وهو الكفر .

---

(١) (رويدا) : مصدر مؤكد لمعنى العامل – وهو فى الأصل مصغر (رود) أى: مهل – أو (إرواد) على الترخيم – أى: أمهلهم إمهالا قريبا ، أو قليلا . اهـ :

(أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) : بدل من (مَهِّل) والمعنى : أمهل الكافرين إمهالا رويدًا ، أى : قليلا ، أو قريبًا .

وعن السدى أنه قال : أمهلهم حتى آمر بالقتال ، وآتيك فيهم بأمر جاسم ، أى : أمهل الذين كفروا بدعوتك التى واجهتهم بها ، ولعله المراد بالإمهال القريب أو القليل ، واختار بعضهم أن يكون المراد الإمهال إلى يوم القيامة ليعم من واجههم بالدعوة ومن كفروا بها بعد ، لأن ما وقع بعد الأمر بالقتال – كالذى وقع بالكفار يوم بدر وفى سائر الغزوات – لم يعم جميع الكفار ، ومايكون يوم القيامة يعمهم جميعًا ، والتقريب يكون باعتبار أن كل آت قريب .

والظاهر ما قاله السدى ، وقد أصابهم بعد الأمر بالقتال ما أصابهم من قتل أبطالهم وقهرهم وإذلالهم ، وظاهر كلام أبى حيان أن الأمر الثانى (أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) تأكيد للأمر الأول (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ) والمخالفة بين اللفظين بين « مَهِّل » و « أَمْهِل » لزيادة تثبيته ﷺ وتصبيره – عليه الصلاة والسلام – ودلت الزيادة المشعرة بالتغاير على أن كلاً من اللفظين كلام مستقل بالأمر بالتأنى فهو أوكد من مجرد التكرار ، والله أعلم .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩ / ١٩٩٠

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزي السيد شعبان

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٨٢٩٦ بر ١٩٩٠ - ٢٥,٠٠٤


Bibliotheca Alexandrina
0402877